سلسلة روايات تونسية معاصرة 4

حافظ محفوظ

نَومُ الدِّيكِ

رواية

مومنت
كتب رقمية

سلسلة روايات تونسية معاصرة ٤

نومُ الدِّيكِ

حافظ محفوظ

رواية

مومنت كتب رقمية™

إلى صداقة ميلاد زرود

1

كانت المسافة، بلا ريب، الفكرة المسيلة للدّموع. دفع العربة فجرا من نهج الفتح إلى ساحة برشلونة. قطعة بلاستيك غليظة تغطّي الصّدر تحت المعطف البنيّ. الرّأس ملفوفة بزنّار أسود وأبيض يشبه اللّحفة. أولاد الجنوب يعرفون تاريخها. من يبلغ تاج النّخلة أوّلا يحصل على لحفة البريما وعرجون دقلة ويحظى بشرف فتح قلّة اللاّقمي وشرب الكأس الأولى. ليس عليه أن يحمل جسده إلى بيته بعد الشّرب، الجماعة تتكفّل بذلك. روح النّخلة ليس حراما. يا كريم. يا فتّاح. يا رزّاق. صحفة درع تردّ الصحّة.يوقف ميلاد عربته بجانب الكلتوسة. يثبّت عجلتيها بحجارتين يحتفظ بهما في صندوق الصوارد. يخرج الصّحاف البلّوريّة الصّغيرة. الملاعق. أواني السكّر و اللّوز المرحيّ و الحلوى الشّاميّة والسكنجبير. يأخذ السّطل. يملؤه ماء من المقهى. يضعه بجانبه. يفتح قارورة الغاز الصّغيرة النّائمة في الطابق السّفليّ من العربة ويشعل الموقد. تشغّل الحافلات محرّكاتها. يغدو أزيزها إيقاعه الدّاخليّ. يشرع في دندنة أغنية... يرفع غطاء القدر فتفوح رائحة السّحلب خفيفة أوّل الأمر ثمّ تغشى أنفاسه. ما تزال الفوانيس البلديّة مضاءة. يأخذ صحفة ويغطسها في الماء ثمّ يمسح يديه بمنشفة يجذبها من جيب معطفه. يسمع صوت نـور الدّين سائق الحافلة 18 .

يرفع الصّحفة من الماء. ينشّفها ويصبّ فيها قدح السّحلب. ملعقة لوز ونصف. ملعقة سكنجبير. ملعقتان من السكّر. يرشّ عليها قطرات من مـاء العطرشاء. يقطع المسافة التي تفصله عن الحافلة مردّدا: "نهارنا دقلة وحليب". يأخذ نور الدين الصّحفة مصبّحا. يحرّكها بالملعقة ويشربها دفعة واحدة ثمّ يمدّها فارغة إلى ميلاد ويناوله الخمسمائة.

_ استفتح.

_ يا صباح الديزويت.

_ كأنّك زاهي.

_ سأزوره غدا. أعطاني العمدة التّصريح.

_ أحضرت القفّة؟

_ كلّ شيء خمسة زيت يا خويا نورا. الوالدة طارت من الفرحة.

_ ربّي يفكّ غلبته. سلّم لي عليه.

_ يبلغ.

ميلاد في الأربعين. يبدو في الخمسين. وجهه الرّصاصيّ بعينيه الغائرتين وأنفه الطّويل وفمه الصّغير يمنحه ملمحا حادّا وحزينا. عندما كان صغيرا أطلقت عليه مادام كوجي معلّمة الفرنسيّة اسم "بينوكيو" الدمية ذات الأنف الطويل فعلق به سنوات دراسته الابتدائية. اسمه ميلاد زرود. أصبح الجميع ينادونه" بينو" حتّى والده ووالدته تعوّدا على اسمه الجديد. هو لم يعارض. قبل الاسم الذي وجد فيه موسيقى تناسبه. لم يذهب ميلاد إلى الثانويّة لأنّه لم يجتز امتحان السيزيام. صار يعرف القراءة والكتابة والحساب. قال أبوه آنذاك. لم يعاود الذّهاب إلى المدرسة. صار قادرا على دفع عربة خضار أو غلال حسب الفصول. ودار الفرنك في يده. صار كفيل العائلة بعد موت أبيه، لذلك أعفي من الخدمة العسكريّة. لكنّه دفع للعمدة السلطاني الذي مات هو الآخر وخلفه في العمادة ابنه السّلطاني الصّغير. زوّج أختيه ودفع مصاريف أخيه الوحيد عزّ الدّين الذي تخرّج من الجامعة أستاذ فلسفة ولكنّه لم يجد عملا منذ أربع سنوات. أرسل عشرات المطالب بلا جدوى. المسالة تحبّ كتفا. و ميلاد لا يعرف كتفا يتوسّط لأخيه حتّى يحصل على شغل. عزّالدين يناديه "سيدي" ولكن يوم داهمت الشرطة بيتهم وأخذوه عاريا من فراشه ناداه "ميلاد" طالبا منه موافاته بملابسه إلى المركز. يومها غابت عربة ميلاد وصوته عن ساحة برشلونة. وقع الأمر بسرعة. لم يطرقوا الباب. قفزوا من فوق السّور. دفعوا أبواب البيوت الثلاثة. أحدهم جذب عنه الغطاء الصّوفي وأمسكه بكفّين كبيرتين من عنقه. وإذ اكتشف أنّه ليس الشخص المطلوب دفعه بقوّة سائلا بصوت كالنّباح عن مكان عزّ الدّين. لم يستطع ميلاد الكلام لحظتئذ فقد أفقدته المفاجأة

صوابه. أبصرهم يجرّون أخاه جرّا. أحدهم ركله على بطنه شاتما عورة أمّه وسلالة سلالته... هكذا قال للشّيخ عبد الكبير الكاتب العموميّ الذي قصد مكتبه ليحرّر له شكوى... اكتب إنّهم أخطؤوا. والله عزّ الدّين بريء. اكتب إنّهم ضربوني بغير حقّ وأنّ عليهم إطلاق سراحه. هذا ليس عدلا. قولوا لي ماذا فعل وأنا سأربّيه. سأقطع عليه المصروف. سأطرده من البيت. لكن قولوا لي ما هي تهمته؟. الشّيخ عبد الكبير كتب ما أملاه ميلاد بالحرف ومدّ إليه الورقة الوزيري ليمضيها ثمّ وضعها في ملفّ أزرق كتب عليه "إلى السيّد المعتمد حفظه الله". نهض بعد ذلك. أغلق باب مكتبه واتّجها معا إلى مبنى المعتمديّة حيث سلّما الرّسالة إلى الحاجب وقفلا عائدين. قال لهما عودا يوم الاثنين فالسيّد المعتمد يرتاح يوم السّبت والأحد و أضاف: "إن شاء الله لن يكون إلاّ الخير".

من أين يأتي الخير؟ سألت صالحة أمّ ميلاد. سرقوا كبدي ويقولون إن شاء الله خير. الدّنيا فسدت. الجيش بالضرب والهراوة وخلع الدّيار. حتّى في الاستعمار ما كان هكذا. يا ديني. بلغ الخبر الأختين ففزعتا. مرّت إحداهما على الأخرى وما أن انتصف النّهار حتّى امتلأ البيت بالأطفال وانقلب إلى مناحة. لم يجد ميلاد كلاما يجيب به أختيه. اكتفى بالقول إنّ الأمر لا يعود إلى جرم اقترفه أخوه بل هو خطأ سيزول ويعود عزّ الدّين قريبا. هذا يحصل دائما. سيكتشفون الحقيقة. سيعود بعد يومين أو ثلاثة.

مرّ أكثر من شهرين دون أن يسمعوا خبرا عنه. ثمّ قيل لهم إنّه في سجن الخليفة، سجن السّياسة والزّيارة ممنوعة قبل الحكم. حبس السياسة؟ قال ميلاد وهو يحكي لأصحابه في مقهى الحجّاج عند رحبة الخيل. من أين دخلت السّياسة دارنا؟ نحن أولاد باب الله. أكاد أجنّ يا جماعة. الولد مظلوم. أخي لم ينطق بكلمة عيب واحدة طول عمره. هل رأيتم عليه شيئا. لم يدخّن سيجارة في حياته. قالوا سياسة والحكاية خطيرة. أيّ عاقل يصدّق هذا؟ أقسم لكم أنّي لا أعرف اسم وزير واحد من الموجودين اليوم. هذي أمور لا تهمّنا. نحن قوم نجري وراء الخبزة. قال لي العمدة الحكومة تعرف أكثر منّا. حكومة من؟ كيف تعرف أخي أكثر منّي؟ ذاك ابني. أنا ربّيته بيديّ. أقول لهم ما يوجد في أمعائه إن شاءت الحكومة. يا والله

عجب. لا أحد يعارض ميلاد. وما الفائدة؟ يعلّق عبد الله برغل بائع الخردة. ستحرق أعصابك. دع الأمر لصاحب الأمر. أخوك ليس الوحيد. سمعت بمائة مثله. باتوا وما أصبحوا كلّهم أولاد جامعة ومنهم موظّفون. هو سيحاكم على الأقلّ. وإذا كان بريئا سيخرج. أعمل ربّي في بالك وصلّ على النّبي. يتنهّد ميلاد. يتشهّد. يرفع عينيه إلى الأعلى. يا ميلاد السّماء، ارحم ميلاد الأرض.

"الأرض العطشانة تعطي ثمرة ذبلانة". يعلّق عبد السّلام عامر. نحن نعيش على أرض عطشانة وجوعانة وبردانة. كيفما تكون أرضكم تكونوا. يقول الشّيخ عبد الكبير الذي خاب ظنّه في المعتمد. أقسم أمام الجماعة أنّه لن يكتب إليه ما دام على قيد الحياة. لم يأخذ بخاطري. كلّ شكوى كتبت فيها خطّا قضاها الله. لو يكتب المكتوب وأقابله وجها لوجه لأسمعته كلمات تبقى مخطوطة في جبينه الدّهر كلّه. كتبنا كلّ شيء. صحيح أم لا يا ميلاد؟ يحرّك ميلاد رأسه مؤيّدا. الحكاية أكبر من الكتابة. أكبر منكم كلّكم. يضع منصور الحشيش يديه على الطاولة ويدنو برأسه من ميلاد والشّيخ عبد الكبير خافضا صوته. التلفزة والجرائد تتحدّث عن شيء اسمه الإرهاب وتقول إنّ بلادنا فيها هذا الشّيء وإنّ الحكومة والشّرطة والدّنيا كلّها مصمّمة على قطع دابر هذا الإرهاب والعياذ بالله. و يقول لك إنّ هذا الشيء أخطر من المرض الخبيث عافانا وعافاكم الله، إذا ضرب في أرض أهلكها. لذلك يمسكون بكلّ من يشكّون فيه. والله أعلم يا أخي. ربّي يجيرنا من الرّهبة والرّهبان ويحسن العاقبة.

يقف ميلاد مصعوقا. أخذت عينه اليمنى ترتعش. اسمع يا سي منصور لو كان عزّ الدّين مريضا بهذا المرض لكنت أولّ من علم. صحّته والحمد لله عال العال. أحسن منّي ومنك. من قال لهم إنّه مريض؟ من كشف عليه؟ الجنون؟ الملائكة؟ حضرتك؟ المعتمد ابن الكلب؟ الحكومة القحبة؟ والله لو لم تكن جاري لقلت إنّك معهم. يا ربّ ميلاد استرها. وضع لحفته على كتفه وغادر المكان. ناداه منصور. يا ولدي لم تفهم. تعال. لم أقصد... اعمل عقلك. التفت إلى الشيخ عبد الكبير. من قال إنّ عزّ الدين مريض؟ ميلاد لم يفهم قصدي. لا إله إلاّ الله. كيف أشرح له هذا؟ أنا أتحدّث عمّا تقوله الجرائد و التلفزة. والله عزّ الدين أعزّ من أبنائي. هل قلت إنّ عزّ الدين

مريض؟ برحمة والديك يا شيخ عبد الكبير هل قلت؟ يا سيّدي كلّ واحد ورأيه. تعرف أنّه في حال لا يحسد عليها. روحه معلّقة في كلمة. أجاب الشيخ. والله لم أقصد يا رجال ورحمة أمّي...

هل كان حزنا أم كان غضبا؟ ربّما امتزجا حين تركا ميلاد متردّدا بين ما قاله منصور الحشيش وخوفه على صحّة أخيه عزّ الدّين. تربّع الحزن بين عينيه وانفرد الغضب بيديه فأخذتا ترتعشان وهو يبتعد عن مقهى الحجّاج بغير وجهة. ساعة مجنونة هي هذه التي سيقضيها وحيدا. تحرّك فمه دون أن يعطيه الإذن. اسمع يا ميلاد، دوّختك الحكاية. كيف ستتصرّف؟ لم يكن ينقصنا إلاّ حبس الخليفة وغضب الحكومة وسخرية الحشيش. من أين جاءتنا هذه البليّة؟ الواحد منّا لا يأخذ إلاّ ما كتب الله له. لكن لماذا يكتب الله لنا هذا ولم نذنب في حقّ أحد؟ أستغفر الله. أأضعت البوصلة يا ميلاد؟ قال لي إرهاب. وماذا لو كان مصابا بهذا المرض؟ أعوذ بالله المانع الستّار. ومتى كانت الحكومة تداوي النّاس؟ متى؟

منذ تلك الأمسية حقد ميلاد على منصور الحشيش. اعتبره شامتا وردّد أمام أكثر من واحد أنّه يعمل مع الحكومة سرّا. ورغم الوساطات التي وظّفها منصور لإعادة المياه إلى مجاريها أصرّ ميلاد على موقفه. جاءه عبد السّلام عامر إلى البيت بعد صلاة العشاء. أدخله ميلاد إلى الغرفة مرحّبا. أعاد عليه سرد حكاية هجوم الشرطة عليهم. كنت نائما هنا. انظر. شدّني من عنقي. رأيت العجب. انقطع نفسي. ثمّ رماني هنا. كان الباب مفتوحا فرأيت عزّ الدين معلّقا بين أيديهم. آه يا أخي. لا يحسّ الجمر إلاّ من يمسكه بيديه. حين ترى واحدا من أهلك في تلك الحال. أكثر من هذا. الوالد، الله يرحمه، أوصاني به. الأنثى، يطول الزمان أو يقصر وتذهب إلى بيت آخر. ولكن عزّ الدين ضعه في عينيك. وأنا لم أقصّر أبدا. يشهد عليّ ربّي. حتّى أنّي نسيت نفسي. الوالدة، الله يصبّرها، تقول لي إنّي لم أعد أصلح للزّواج. هي تعرف كلّ شيء... يسمعه عبد السلام دون أن يقاطعه. يحرّك رأسه بين الحين والآخر. و ميلاد الذي لم يكن يشكو من قبل رغم كلّ شيء، يكاد ينفجر. هذه المرّة وصل الأمر إلى درجة لم يعد يفيد معها الصّبر. كم يقاسي الحيّ. نسي الأيّام السّوداء، حين كانوا يفتكّون عربته بما فيها. قلنا لك ممنوع الانتصاب هنا بلا

رخصة. البلاد صارت فوضى. كلّ واحد يصنع كرّوسة عند النجّار ويستعمر مكانا. هذه بلاد الحاكم وليست ملكا لسيّدي الوالد. هذا يبيع الحمّص والفول وذاك يبيع البسباس والخصّ والآخر يبيع اللّوز. ونحن نجري وراءكم. سنحجز العربة بما فيها. الحق بنا إلى مركز المنصف باي. يتوسّل إليهم ميلاد بلا فائدة. يأخذون العربة. السّحلب يصدر بخّاره عاليا... تسقط قطع النّقود على الأرض. ينحني ميلاد ليجمعها. أحدهم يركلها بقدمه شامتا.ينظر إليه ميلاد. ماذا بيني وبينك؟ عندي عائلة تنتظر الخبز. قطع الأرزاق حرام. يلقي ميلاد بجسده تحت الكلتوسة ناظرا إلى النّاس المتحلّقين حوله. يصيبه الدوار في كلّ مرّة يفتكّون فيها عربته. دوار غريب، يشعر عندها بيأس كبير يلفّه، فتسودّ الدّنيا أمام عينيه. كان ذلك قبل أن يفهم أنّ الجماعة تريده أن يدفع لهم مثل البقيّة. صار يطرح دينارين يوميّا، وفي آخر الشّهر يمرّ به أحدهم فيعطيه المعلوم مبتسما. أحيانا يضيف عليه ورقة بخمسة دنانير. حاميها حراميها. يكرّر في سرّه، لم يعد أحد يأخذ عربته. البلديّة لا تعطي رخصا لأمثاله. الشّرطة هي التي تتصرّف. والشرطة تقسم معه. والقسم على ربّي. المحطّة خالية بدونك يا ميلاد. يقول له النّوري نادل المقهى وهو يملأ له السّطل. ربّي يعينك... نسي ميلاد الرّافل. هكذا يسمّون هجوم رجال الشرطة على أصحاب العربات والفرش. نسي عدد المرّات التي وقف فيها أمام رئيس مركز المنصف باي، صاحب الرأس المثلّث. الذي يطلق عليه اسم الجدع. إنّه جدع والله. لا يفهم الحديث. لا يسمع ما يقال أصلا. يرى أنّه يأتي بعد الله مباشرة في تسيير شؤون الخلق. ادفع الخطيّة وخذ سلعتك. لا تكلّمني. المخالفة مخالفة. يطلب منه ميلاد أن يسامحه واعدا إيّاه بعدم العودة إلى صنيعه. لكنّه لا يسمع. الجدع لا يسمع إلاّ نفسه. يدفع ميلاد ويدخل إلى مخزن المحجوزات ويخلّص عربته. أحيانا تضيع القدر أو تضيع الصّحون. الله غالب. نحن لسنا حرّاسا لسلعة سيادتك. هيّا خذ بعضك وارحل. ويرحل ميلاد رافعا يديه إلى السّماء التي كانت لا تنظر إليه. تسمعه ولا تتدخّل لتساعده. لقد نسي كلّ ذلك. صار يدفع. والشرطة تحبّ من يدفع لها وتحميه. لكنّ الآن؟ عليه أن يفهم أنّ الشّرطة أنواع. كلّ واحدة واختصاصها.

نظر إليه عبد السلام. منصور الحشيش هو الذي طلب منّي أن أكلّمك. وها قد جئتك. تعرف أنّي لا أتدخّل في هذه الأمور. لكنّك قسوت عليه. والله أضمنه. لقد بكى أمامي. رأيت دموعه. أقسم لك.

من أدراه أنّ أخي مريض؟ أنا لا أطلب شيئا منه. أمّا كلام ربّي لا. لا يكلّمني ولا أكلّمه. ويوم يخرج عزّ الدين سأخبره بما قال ليهشّم رأسه. عندها سيعلم أنّه سليم. تربّينا معا. أكل معنا خبزا وملحا. أرضعته أمّي ذاك الخنزير. كان سيموت لو لم يجد حليبها. قل له ابعد مرّة واحدة. أنا لم أخبرها إلى اليوم. أخاف عليها من الصّدمة. سيّدي ابن آدم لا أمان. سيتذكّر كلامه ذات يوم. اقترب منه عبد السّلام وأمسك بقبضتيه. اسمعني ثمّ احكم. أنت لم تفهم ما قاله أصلا. هو لم يقل إنّ أخاك مريض. لا قالها. عارض ميلاد. كنتم شهودا. ذكر مرضا خطيرا. أنا أسمع بأذنيّ. تركت المقهى لأمنع نفسي عن ضربه. اهدأ يا ميلاد واسمعني أرجوك. يا سيّدي قالها لكنّه لا يقصد مرضا كالكوليرا أو الجرب أو غيرهما، قال الإرهاب. نعم، هو ذاك. صاح ميلاد. لماذا ينكر إذن؟ قل له كن رجلا وتمسّك برأيك. وماذا فهمت أنت من كلمة إرهاب؟ مرض؟ أليس كذلك؟ هو يعني ما تقوله التلفزة والجرائد. القتل والجرائم والحرائق والهدم والتفجير والسّلاح وكلّ شيء يقتل النّاس. الإرهاب يعني كلّ هذا. ومنصور الحشيش أخبرنا بما سمع وما قرأ. تعرف أنّه لا يترك سطرا واحدا من الجريدة إلاّ ويقرؤه. هذا ليس جديدا عليك. قال لي إنّه يخاف أن يكون عزّالدين متّهما ظلما طبعا بشيء من هذا. هو يعرف أنّ الدّولة لا تقبل من يعارضها. أنسيت الماضي يا ميلاد؟ أ تحبّ أن أذكّرك؟ أنسيت الرصاص يلعلع والموتى والجرحى والبوليس والخبزة واليقظة وجماعتها وما عملوه في النّاس؟ أين ولد خليفة الصبابطي و جماعة السفارة و زوج حبيبة الساحلية وتلك العائلة التي كانت تسكن في دار الجريبي وغيرهم وغيرهم. أنت تعرف أكثر منّي. وقف ميلاد دون أن يرفع عينيه عن صديقه. الحكاية ليست مرضا إذن. بل أكبر من المرض. لكنّ أخي لم يقتل أحدا ولم يفجّر شيئا. ولم يمسك سكّينا حتّى. صرت أكثر خوفا عليه الآن. قل له يفسّر كلامه مستقبلا. أنا لا أفهم كلام الجرائد ولا أحبّ التلفزة. ولكن كيف عرفوا أنّ أخي مورّط في مثل هذه الأعمال؟ هل رأوه؟ هل لديهم دليل؟ هل قبضوا عليه متلبّسا؟ هل وشى به قوّاد من القوّادة؟ طيّب يا سيّدي.

قل له سقطت الكفّ على ظلّها. نسيت الحكاية. لكن عليه أن يعرف ماذا يخرج من فمه وإلاّ هدّمته له. الله الله عليك. هكذا تكون ميلاد الذي أعرفه. سيفرحه هذا الكلام. وسيعتذر لك بنفسه غدا. دعني أذهب الآن.

لم يقتنع ميلاد بما قاله عبد السّلام. في الحقيقة لم يقتنع بكلام منصور الحشيش. رأى أنّه يحاول خداعه. لذلك سأل نور الدين سائق الحافلة في الغد. حمل إليه صحفة السّحلب وطلب منه أن يفسّر له معنى كلمة إرهاب.استمع إلى شرحه بانتباه. واقتنع. لم يأخذ ثمن الصحفة. هي من عندي. قال له. ورحمة أبي لن تدفع اليوم ملّيما. بالشّفاء والهناء.

لكن ميلاد لم يصفح تماما عن منصور الحشيش. شاهد ميلاد النقطة السّوداء بينهما وتابعها تتمدّد يمنة ويسرة وتتوسّع لتصنع جدارا هائلا ارتفع دفعة واحدة وفصلهما الواحد عن الآخر. لذلك لم يشعر حين احتضنه في مقهى الحجّاج بعد يومين من زيارة عبد السلام بما كان يشعر به قبل أن يسمع كلمة الإرهاب. و أحسّ الحشيش بنفس الشيء فأخذ يثرثر والجماعة تنظر إليه مخافة أن ينطق بما لا يروق لميلاد الذي سرح بخياله ساعتها بعيدا...

إنّه هو وسط رافل كبير. لكنّهم لم يأخذوا سلعته هذه المرّة، بل أخذوا كبده. أخذوا ابنه الذي يتباهى به. أخذوا الغالي الذي رفع رأسه وسط النّاس. أخذوا الفيلسوف الذي لا يلحق كبيرهم إلى إصبعه الصّغير. آلاف الأصوات اخترقت سمعه. آلاف الصّور هاجمت ذهنه. في كلّ صوت أنّة. في كلّ صورة دمعة. لكن لا. عزّ الدّين لا. سيخرج من حبس الخليفة ويرجع إلي حضني وحضن أمّه.

2

نزولا من نهج الحرير، باتّجاه بطحاء سيدي سالم، تنزلق الخطوات. أصوات مندفعة من الجدران المتقابلة. أضواء ملفوفة بحمرة قديمة، هنا وهناك، الخيوط المشدودة في أطراف مسامير معقوفة الرؤوس ترتخي الواحد تلو الآخر. لقد تعوّد رؤية الدكاكين المغلقة لكنّ اليوم بدا وكأنّه يراها للمرّة الأولى. كان يمكن أن يسلك طريقا مختصرة.وجد نفسه مدفوعا إلى تلك المساحة العاتمة التي يعبرها كلّ يوم. هي أنسب للعربة. طار النّوم قبل أوانه.هو لم ينم في الحقيقة. تقلّب اللّيل في فراشه. وحين سمع خطوات الصالحة أمّه أنزل قدميه على الأرض. سيزور عزّ الدّين اليوم. ترك أمّه تعدّ ما سيأخذه إليه في القفّة وغادر البيت. حلفت يمينا معطّرا بدموعها أن تحضر له خبز الطابونة. عجنته من اللّيل. سيصبح مفوّجا، خبزته فوّاحة. ولدي حرموه حتّى من خبيزة سخونة. ربّي يهلكهم. منذ أن حبسوا عزّ الدين صارت تتكلّم وحدها. الله يرحمك يا سي مصطفى. قلتها. أبوك على بركة عظيمة. الولد هذا الخير بين يديه، أمّا إن شاء الله يبعد عنه أولاد الحرام. هم أولاد الحرام أخذوه من النّوم. خرج ميلاد ليأتي بالسيّارة. سيّارة ولد الزّعبي. اتّفقا أن ينتظره في المقهى. أوصل الوالد إلى السّوق وآتيك قبل الثامنة. كن مطمئنّا. سلّم لي على أمّي صالحة.

خميّس الزعبي تقدّم لخطبة دليلة أخت ميلاد فرفضت. قالت إنّه يشرب. لم يغضب من ردّها. ربّي يسهّل لها. تزوّج عمدونية. بنت حلال. أنجبت له ثلاثة أولاد. دليلة تزوّجت بعد سنة من خطبتها. زوجها يخدم باللّيل. لا يزور دار أنسابه إلاّ نادرا. ظروف يا ميلاد. إن شاء الله في العيد نزوركم. من مكانه في مقهى المركاض يشرف ميلاد على الرّحبة. كانت ملكا للباي. يا سيدي مرحبا. قال له الباهي النّادل، وهو يصافحه. عندك مدّة يا رجل. ما الذي ذكّرك بنا؟ عندي موعد مع خميّس ولد الزّعبي. أعطني قهوة. قهوة إكسبراس لولد باب الجديد. يصيح الباهي وهو يبتعد. تذكّر ميلاد والده. كان يجلس في ذاك الرّكن المحاذي لدكّان الجبري. يتبادلان الحكايات الخضراء. لعلّهما يواصلان سرد حكاياتهما هناك. الجبري كان يبيع القمح والشّعير والبقول الجافّة. مات قبل أبيه بسنة أو أقلّ. لم يتزوّج ولم ينجب

أبناءً. بيته كان يحاذي الدكّان وبينهما معبر صغير. منه يدخل ويخرج ومنه تمرّ النّسوة. يأتين من الأبعاد. ربّي أعطاني القبول. لو تزوّجت لما كان لي كلّ هذا الخير. ميلاد يتذكّره جيّدا. كان يحرس له الدكّان في تلك الأوقات و يعطيه ثمن فطيرة بالعسل. كان أبوه ينصب عربته المملوءة بالخضر في الجهة المقابلة. طماطم وفلفل وبطاطا ومعدنوس وسلق و كلافس وبصل وقرع. وقت الجلبانة جلبانة. ووقت العنب عنب. ووقت الدلّاع دلاّع.كان ينظر إلى حيث كان والده يقف بجسده الطويل مرتديا بلوزة شخماء وعلى رأسه الكبّوس والزنّار وصوته يلعلع. يمدح البطاطا. يا لنديزا يا بطاطا. يمدح الطماطم. خدّ الوردة يا طمطومة. يمدح العنب. يا عنيبة راك زبيب والزوّالي كلاه الذّيب يخلف على صطوفة واش يجيب. كان اسمه مصطفى. كان ميلاد يساعده عند العودة من المدرسة. يقف في مكانه بينما يذهب هو إلى الجامع أو يجلس مع الجبري يشربان الشاي المنعنع ويرفعان ضحكاتهما إلى السماء. من مكانه وراء العربة، كان ميلاد الصّغير يسمع تلك الضّحكات فيضحك هو بدوره بصوت عال. الله يرحمه تمتم ومسح وجهه بكمّ معطفه. وضع الباهي القهوة على الطاولة وجلس قبالته سائلا. قالوا لي عزّ الدّين مشدود. لم أصدّقهم. الحكاية صحيحة؟ إيه صحيحة. لم يفعل شيئا. اليوم أزوره. ربّي يظهّر الحقّ. من فمك إلى باب ربّي يا باهي. نهض الباهي وتركه. كان يشعر بفرح رغم كلّ شيء. مرّت خمسة أشهر لم ير فيها أخاه. واليوم سيقابله. لا يهمّ. قال في سرّه، وكأنّه يصبّر نفسه. الحبس للرّجال. والرّجال أكلهم الحبس.

3

الرّأس ملقاة على الرّكبتين في شبه ارتخاء. لم يكن داخل المكان. المكان ذاته لم يكن هناك. لعلّها المسافة. هي التي هيّأت كلّ شيء فكان. سقوط في الحلم يتلوه سقوط في الحلم يتلوه سقوط في الحلم يتلوه سقوط من سرير لا وجود له خارج الحلم. و مع ذلك بدا كلّ شيء حقيقيّا وقابلا للتّصديق كما لو أنّ كتابا انفتح فجأة و خرجت منه أصوات الحمقى القابعين فيه منذ أعوام.

الغرفة مربّع بلا زوايا لأنّ عيني الرّأس الملقاة على ركبتين صارتا لا تميّزان بين الاستقامة والاعوجاج. هي مجرّد دوائر. كلّها دوائر و إن بدت فيها خطوط مستقيمة. بعد الشهر الأوّل من دخول هذه الغرفة لم تعد زواياها زوايا. تغيّرت تدريجيّا. صار من الممكن قيس قطر المكان. هو لا يفعل شيئا منذ جاؤوا به إلاّ قيس الأقطار ثمّ قسمة كلّ منها على اثنين ليجد قيس الشعاع. هي أربع خطوات لا غير دون مدّ للخطوة مبالغ فيه أو تقصير.

مكوّما كما هو، كتلة جاهزة للانفجار ، لم يعد يهتمّ بنزول الأفكار المنسكبة من السّقف في شكل كتل دهنية. لعلّها كانت كتل رصاص. يظلّ يطرق السّمع منتظرا أن يسمع صوت ارتطامها على رأسه ذات الجبين البارودي. يظلّ يطرق السّمع دون أن تفاجئه فرقعة أو دويّ. لعلّ رطوبة الغرفة أفسدت معدن جبينه. صار جبينه جبنة يمكن لأيّ فأر أن يقضم منها قطعة وينسحب في هدوء نحو جحره هنا أو هناك في محيط تلك الدّائرة التي صار قيس شعاعها خطوة واحدة.

يضع عزّ الدين احتمالا واحدا بين جبينه وركبتيه و ينهمك في الضّغط عليه بأقصى ما تملك الرّأس من قوّة وبأقصى ما تملك الرّكبتان من قوّة. سترتفع الجدران دفعة واحدة ويخرج. الاحتمال الذي صار رقيقا جدّا بفعل القوّتين المسلّطتين عليه بات غير قادر على الصّمود أكثر، لذلك تحوّل إلى ذكرى احتمال. فالجدران هي الجدران و إن صارت دائريّة. الجدران هي الجدران و إن ارتخت الرّأس و اتّسعت زاوية الرّكبتين.

بمرور الأشهر الخمسة لم تعد الرّكبتان قادرتين على حمل الرأس المرتخية فاتّسعت المسافة بينهما وانسحب الاحتمال الوحيد تاركا الجسد المكوّم يُنبت احتمالا جديدا. الاحتمال الجديد مغلّف بالحمّى والهذيان. الهذيان متواصل لا يقطعه سوى صوت الباب تُرفع فتحته السفلية لتمتدّ منها يد ووعاء بلاستيكيّ أحمر فيه طعام بنيّ. الطّعام البنيّ يصدر بخارا أصفر يصعد في فضاء الغرفة كتلا من الرّؤى سرعان ما تمحوها الرّطوبة ويأتي عليها الجوع. الجوع في الغرفة الدّائرية سيّد تمّحي بقدومه جميع الأحاسيس. الأحاسيس المتروكة عند مركز الدّائرة تنتصب عمودا يشدّ السّقف الذي يهمّ بالسقوط فتمنعه أرواح تدعو سرّا إلها ينظر في قلق نحو الهاوية المنصوبة فخّا أنيقا يقع فيه الحمقى الحالمون. الحمقى الحالمون لا ينامون نوما كاملا ولا يصحون صحوا كاملا. الصّحو الكامل عاهة مستديمة تصيب البشر فتأتي على أحلامهم.

لم يكن ذاك صوته قادما من شفتيه أو من أعماقه. كان صوت "السيّد" حين ضمّه أوّل مرّة إلى صدره ضمّة جعلته قادرا على قراءة أحلامه وتفسيرها. بل واستحضارها من تاريخه الشّخصيّ ثمّ إعادة صياغتها كما لو كانت نصّا يكتبه أو يوحى إليه بلغة لا يفهمها غيره.

كان "السيّدُ" جالسا يفترش حشيّة صغيرة في ركن معتم من غرفة ممتدّة داخل تلك الدّار التي زارها قبل عامين. لم تدم الزيّارة أكثر من دقائق قليلة. كانت دقائق نافرة من توقيت الكون. خرج منها عزّ الدّين ممتلئا بالأحلام، قادرا على رفع ثقل المجرّات دون جهد، يمشي فتتبعه خيالات يحرسنه، يتوقّف فيرتفعن عن الأرض قليلا يظلّلن مكانه.

- و من كان "السيّد"؟

- سأحدّثك عنه.

حين التفت عزّ الدّين ناحية القوس الأندلسي قرب مقام سيدي حسن المغربي، لم يكن ينتظر أن تقوده تلك الالتفاتة إلى "السيّد" صاحب الاسم المحصّن. التفاتة

عفوية تابع خلالها بعض المارّة ثمّ استدار مواصلا سيره الحثيث نحو القصبة حيث تعوّد الجلوس في ساحة العسكر. لحظتها أبصر رشيدا يعبر القوس الأيمن قادما نحوه. وإذ ارتسمت صورته في ذهنه التفت من جديد وتوقّف ينتظره مبتسما. كان رشيد قد وعده بزيارة "السيّد" ذات يوم. وحين يسأله عزّ الدين متى يجيء ذاك اليوم يجيب رشيد عندما يأذن "السيّد". يومها أعلمه بأنّ الزيّارة قد فتحت له وأنّه مرحّب به فلم يتردّد في أن يطلب من رشيد مرافقته في الحين دون تأخير، فكان له ذلك. دخل دار "السيّد" وضمّه تلك الضمّة. وكان آخر ما سمعه منه " الصّحو الكامل عاهة مستديمة تصيب البشر فتأتي على أحلامهم". فاقرأ أحلامك الآن قبل فوات الأوان.

ما كان لعزّ الدّين أن يسأل "السيّد" كيف يقرأ أحلامه بل إنّه لم ينطق بكلمة بعد السّلام. اكتفى بالإنصات ثمّ غادر الرّكن المعتم والتحق برشيد الذي كان واقفا بالباب في انتظاره. قضّى ساعات المساء بصحبته، وكان أوّل ما سأله: كيف أقرأ أحلامي؟ فأجاب رشيد: صرت قادرا على ذلك الآن، فلا تقلق. لم يترك رشيد عزّالدين إلاّ وقد شرح له ما يجب شرحه مؤجّلا ما لا يجب إلى وقت لاحق. لم يطل انتظار عزّالدين. حان الوقت. صار واحدا من الذين يقفون عند باب "السيّد". يعرف ما تجب معرفته. يشرح ما يجب شرحه ويؤجّل ما يجب تأجيله. بل إنّه صاحب "السيّد" في مهمّات خارج العاصمة. "السيّد" يحدّثه أحيانا ويطلب منه أن يدوّن الرّسائل ويوصلها بنفسه إلى أصحاب الأسماء المحجوبة وأصحاب الأسماء الظاهرة، حتّى أنّه كتب رسالة إلى القائم الأعلى وسلّمها إليه يدا بيد. القائم الأعلى لا يتكلّم مع أحد، لكنّه تحادث معه و سمع منه ما يجب أن يسمعه و ضمّه إليه مرّتين، الأولى عندما دخل عليه، والثانية بعدما أقسم عزّالدين القسم الأكبر بين يديه. يومها اكتشف أنّه امتلك ما يجب امتلاكه من قدرات تؤهّله لرؤية ما يشاء من الأحلام, يكفي أن يطلب الحلم الذي يريد رؤيته في المنام فيراه.

طوال الشهور الخمسة التي قضاها عزّ الدين داخل تلك الغرفة، لم يفكّر لحظة في أحلامه فلم ير حلما واحدا في نوم. لقد تمثّل "السيّد" يدخل عليه خلوته و يبشّره

بمقام أرفع ويحذّره من طلب الحلم ففي ذاك تصاغر نفس وطمع لا يليق به. ستحلم بعد السّجن فاصبر.

الصّبر الذي كان يخبّئه عزّ الدين داخله ويغلّفه بلفافة من التجهّم كي لا يلاحظ وجوده الحرّاس شرع يتزحزح يوما بعد يوم ويحاول تمزيق لفافته، ينقرها بمنقاره ساعات النّهار وإذ يأتي الليل و يهمّ عز الدّين بطلب حلم من الأحلام، يضمّ الصّبر منقاره وينسحب بهدوء داخل مغلقه. إنّه يخشى الحلم. ماذا لو استحلم ما يبرزه لأوّل ناظر له؟

ماذا لو عنّ لعزّ الدين أن يحلم بالحريّة؟ ذلك يعني أنّه تخلّص من صبره نهائيا. سيكون على الصّبر أن يختفي فلا يعود إليه أبدا.

- لم أفهم.

- أحسن.

4

تدور عجلتا عربة ميلاد دورانا رتيبا يصنع إيقاعا لحركات جسده وهو يمسك بالمقودين الخشبيين بكلتا يديه محاذرا الحفر والنتوءات ساكنة الطريق التي حفظتها ذاكرته. هي ذات الذّاكرة التي كانت لأبيه من قبله. أورثه إيّاها قصرا.

لا شيء يسقط من ذاكرته و إن كان بسيطا. أطنان من الأحداث مرميّة دون نظام. يعرف ميلاد أدقّ تفاصيلها ويعرف الخيوط الرّابطة بينها فكأنّما هي نسيج دقيق الصّنع حاكته أصابعه.

مات مصطفى زرود عند الانعطاف الأخير، قبل خطوات من بلوغ ساحة عثمان داي. قتلته ذاكرته التي لم يعد قادرا على حملها فانهار تحتها وتناثرت بقايا اللّنديزا والطّماطم خدود الصبايا والفلفل المسكي... وحمل الهواء البارد ذاكرته بهدوء مخترقا الأزقّة والأنهج إلى أن بلغ رحبة الشمّاعين حيث يقف ميلاد أمام عربته وألقى له ذاكرة والده دون أن ينقص منها شيء فتلقّفها الفتى ووضعها بجانب ذاكرته فصارت له ذاكرتان.

ارتعش ذو الذّاكرتين مستشعرا فقد أبيه، لذلك تناول قطعة البلاستيك الزرقاء المخفية في درج العربة وغطّى بها أكداس الخضر أمامه ثمّ أمسك بالمقودين الخشبيين وقفل عائدا في غير موعده.

لم يكن دوران عجلتي العربة في ذلك اليوم رتيبا. كان بلا إيقاع.

- لو كانت لديّ دموع لبكيت.

- ميلاد نفسه لم يبك. لم تبرح دمعة واحدة عينيه. كان يدّخر دمعه ليوم سيأتي بعد أعوام. لذلك ابصر ضفادع كثيرة في المقبرة. ضفادع بحجم الكفّ كانت تخرج من بين الأعشاب ومن شقوق القبور وتنطلق قافزة بين أقدام المشيّعين. ضفادع رماديّة و حمراء ظلّت تقفز من الأرض مصدرة نقيقا شبيها بالعواء. وحده ميلاد كان يبصرها ويسمع أصواتها. تلك الأصوات هي ذاتها التي سمعها حين داهم رجال

البوليس منزلهم واختطفوا أخاه عزّ الدّين أمام عينيه عاريا ومقيّدا. يومها بكى حتّى ملأ الدّمع غرفته وأغرق العالم في ملوحة معتّقة.

- والضّفادع؟

- أيّ ضفادع؟

ميلاد لا يحبّ أن تستيقظ الشّمس قبله. عادة يسبقها ويظلّ جالسا في وسط الدّار ينتظرها. حين تلتحق به الشّمس يكون هو قد أحضر عربته وأفطر وشمّ رائحة النّهار الجديد وتذكّر حدثا أو حدثين. مرّة يستلّه من ذاكرته وأخرى ينساب إليه من ذاكرة والده. عندها ينظر إليها ويبتسم لها فترافقه إلى خارج الدّار. هو يدفع العربة ممسكا بالمقودين محاذرا الحفر وهي تدفع بقايا الظّلام. تختفي عنه حينا ثمّ تعود إليه حينا آخر حتّى إذا ما بلغ مكان انتصابه بجانب الكلتوسة وراح يثبت عجلتي العربة بحجارة ويخرج الصّحاف البلّورية الصّغيرة والملاعق وأواني السكّر واللوز المرحي والحلوى الشامية، انشغلت عنه وانصرفت إلى شأنها مغنّية أغنية دافئة.

- والضّفادع؟

- مالك والضّفادع؟

أحبّ أن أذكّرك بأنّ منصور الحشيش أخو ميلاد من الرّضاعة لذلك ينادي صالحة أمّ ميلاد أمّي. ماتت أمّه بعد ولادته بأسبوع واحد. قالوا قتلها قطّوس النفاس. حمله أبوه قطعة لحم تبكي وسلّمه إلى صالحة جارة الساس لإرضاعه فلم تبخل. لذلك حزّ في نفس ميلاد أن يسمع منه ذاك الكلام حتّى وإن أساء فهمه.

ميلاد لا يحبّ التلفزيون تماما كوالده ولا يحبّ الرّاديو ولا يحب الجرائد ولا يحبّ من يثرثر. تعلّم الصّمت من عربته، تظلّ واقفة دون أن تنبس ببنت خشبة إلى أن يأمرها بالعودة إلى البيت فتطيعه. لا يجب أن نعدّ ما تصدره من أزيز أو قزقزة أو صرير كلاما، فذاك من أصل تكوّنها. ينبع من عنصرها. يحبّ ميلاد عربته حبّا لا

يمكن لي الحديث عنه الآن، ولعلّ حبّها هو الذي منعه من أن يحبّ أنثى غيرها. حتّى عزّة.

_ عزة؟

_ نعم عزّة.

هو يحبّها ولكن ليس بالقدر الذي يحبّ به عربته. ذات يوم، إن صرت قادرة على التمييز بين أشكال الحبّ سأحدّثك عنها.

_ عن العربة؟

_ لا عن عزّة.

لا يمكن القول إنّ ميلاد غيّر عربته. ففي كلّ مرّة يصنع واحدة جديدة يحتفظ فيها بجزء من القديمة. العارضتان الجانبيّتان هما الأقرب إلي التلف. المقودان الخشبيان يصمدان أكثر من الرّكيزتين القصيرتين اللّتين تشاركان العجلتين في تحمّل ثقل العربة والبضائع. الواجهة الأماميّة لا تحتاج إلى تغيير، يكتفي ميلاد بتجديد طلائها محتفظا بذات الكتابة " توكّلت على الله ". خطّها أبوه. أبوه مصطفى يحسن القراءة والكتابة. هل قلت لك ذلك؟

- لا.؟

- كان أصغر إخوته. تعلّم مع الفرنسيين وحفظ أحزابا من القرآن. أبوه، أعني جدّ ميلاد قضّى الأربعين سنة الأخيرة من عمره جنّانا في مدرسة ابتدائية. كان اسمه البحري أولاد عيسى. المدرسة كانت في حاجة إلى من يرعى حديقتها فشاء حظّه أن يكون هو من سيرعاها. عندما سأله المدير السيّد فيليب لافوان عن اسمه لم يفهمه، استعان بأحد الجندرمة ممّن تعلّموا بعضا من العربية وأجابه. كان لقبه صعبا في نطقه بالنّسبة إليهم فغيّروه، وضعوا مكان أولاد عيسى "زرود" وهو اسم الوادي الذي يحاذي قرية البحري "أولاد عيسى" فصار الكلّ ينادونه "باري

زرود" أو "بيزود" هكذا. مصطفى ابنه تعلّم مع أولاد الفرنسيس لغتهم. كان كثيرا ما يجلس معهم ويتحدّث إليهم وكأنّه واحد منهم غير أنّه لم يدخل قاعة قسم إلاّ ليساعد الحارس على تنظيفها وحمل أكياس القمامة. كان البحري في الخامسة والعشرين حين بدأ العمل في المدرسة. تزوّج بعدها بخمس سنوات وأنجب ثلاثة أولاد، عبد الله الذي يحمل اسم والده والصّحبي الذي يحمل اسم عمّه ومصطفى. كانت أمّه من اختارت الاسم فلم يعارض البحري. أنا لم أحدّثك عن عبد الله والصّحبي؟

- لا.

- عبد الله مات في الحرب و الصّحبي كذلك. كلاهما مات والبندقية في يديه والخوذة على رأسه. زوجة البحري كان اسمها خميسة ماتت حزنا عليهما. قبل أن يضعوها داخل قبرها أبصر البحري عشرات الضفادع تخرج من الحفرة وسمع نقيقها. كان شبيها بالعواء.

- ضفادع؟

- نعم ضفادع. ضفادع رمادية وبنّية ظلّت تتقافز أمامه فيما كان هو يمسك بكتفي ابنه مصطفى الذي أبصرها هو أيضا وخزّن مشهدها في ذاكرته. ويوم مات عند الانعطاف الأخير قبل خطوات من بلوغ ساحة عثمان داي، أخذ الهواء البارد تلك الذاكرة محمّلة بالضفادع وألقى بها إلى ابنه ميلاد الذي تلقّاها ووضعها بجانب ذاكرته.

- فصارت له ذاكرتان؟

- نعم صارت له ذاكرتان.

- و عزّة؟

- عزّة حين تكون بين أحضان ميلاد تناديه "بابا" وتخدش ظهره بأظافرها وتلتفّ به التفافا غريبا حتّى أنّه يعجز عن إبعادها عنه إلاّ حين تهدأ، عندها ينسحب من الفراش وتنخرط هي في البكاء.

حين رآها تبكي في المرّة الأولى، دنا منها وسألها عن سبب بكائها فلم تجبه. دفعته بكفّيها حتّى كاد يسقط. وابتعد عنها أيّاما حتّى أنّه قرّر قطع علاقته بها. ولكنّها ظهرت من جديد. جاءت إلى الكلتوسة وابتسمت له. كانت ابتسامة برائحة الإكليل. ابتسم لها وأخذ حزمة الإكليل من يدها ووضعها في درج العربة. عندما نزل ظلام ذلك اليوم ذهب إليها. كانت في انتظاره شهيّة كابتسامتها. قالت له "بابا" وخدشت ظهره بأظافرها ثمّ التفّت به التفافا غريبا حتّى أنّه عجز عن إبعادها عنه إلاّ حين هدأت. عندها انسحب من الفراش وراح يرتدي ثيابه فيما كانت هي منكمشة تبكي.

- عزّة تبكي؟

- نعم عزّة تبكي.

ميلاد لا يعرف لماذا تبكي عزّة، ولا يعرف لماذا تناديه "بابا" ولماذا تخدش ظهره. ولو سألها لما أجابته فهي لا تعرف أيضا. ولا تسأليني فأنا لا أعرف بدوري.

الحاصل أنّ ميلاد يحبّ عزّة ولكنّه يحبّ عربته أكثر. أوّلا لأنّ العربة هي التي كانت سببا في لقائه بعزّة. أنا أقول لك هي السبب. تسكن عزّة مع أختها جليلة في بيتها بنهج الفاسي. أختها جليلة لا تتكلّم ولا تسمع ولا تقدر على تحريك أيّ عضو من أعضائها. عزّة تتكلّم مكانها وتسمع بدلا عنها وتقوم على حياتها في كلّ كبيرة وصغيرة، ولولاها لا أدري ما كان سيحدث معها وهي على حالتها تلك. قبل أقلّ من عامين كانت جليلة في صحّتها، تعيش مع زوجها وابنيها وفجأة ، أوب... فقدت كلّ شيء في أغبى حادث سيّارة ممكن. سأروي لك كيف وقع الحادث واحكمي بنفسك، وأنا لا أزيد كلمة. زوجها اشترى سيّارة. كان يعمل في حراسة الغابات، سيّارة على قدّ الحال، إنّما لا بأس بها، وطلبت منه ذلك الطلب الذي خطر ببالها " خذنا إلى الغابة حيث تعمل". لم يكن طلبها لرغبة في رؤية الغابة ولكن لتختبر

خاطرها عند زوجها فلم يرفض. ركبت إلى جانبه والطفلان في الخلف. في ذلك الوقت لم تكن عزّة تسكن معهم. جاءت بعد الحادث لتزور أختها في المستشفى فلم تفارقها مذّاك.

كانت السيّارة تسير بشكل طبيـــــعيّ وهي تصـــــــعد مرتفع "الرّحايات" في طريق مدينة باجة ولا أدري أيّ عطب أصابها. كانت تصعد إلى الأعلى فصارت تسير إلى الخلف في منحدر حادّ. تضاعفت سرعتها ولم يستطع زوج جليلة إيقافها. الفرامل، هكذا قالوا. وطارت السيّارة في الهواء ثمّ حطّت في عمق هاوية وقد عجنت عجنا فلم يخرج منها حيّا غير جليلة. ومن يومها وهي تزداد ضمورا وتفقد شيئا فشيئا جسدها وحواسها. كتلة من العظام نجتهد عزّة لإبقائها على قيد الحياة دون أن تشكو أو تتذمّر.

سأقول لك شيئا لن تصدّقيه. ميلاد لم ير جليلة أبدا. هو يعرف أنّها موجودة في ذلك البيت الذي يزوره مرّة أو مرّتين أسبوعيّا ولكنّه لم يرها ولم يسمع صوتها ولم يشعر حتّى بوجودها. أحيانا كثيرة يفكّر فيها ولكنّه لم يطلب رؤيتها. عزّة لم تطلب منه ذلك. تكتفي بإشارة صغيرة من رأسها فيفهم منها أنّها نائمة في الغرفة المجاورة لذلك لا يتكلّم حين يكون مع عزّة إلاّ همسا.

قلت لك العربة هي السبب. نعم هي السبب. خرجت عزّة لتشتري خضرا من سوق باب الفلّة فأبصرت ميلاد يدفع عربته وعليها ما تطلب فأوقفته واقتنت حاجتها فأوفى لها في الميزان وتركها تختار على هواها وهو ينظر إليها. الحقيقة أنّها أعجبته وتمنّى لو تظلّ واقفة على عربته تختار. لو أخذت بضاعته كلّها ولم تدفع له غير تلك الابتسامة التي ودّعته بها لما عارض. هي أيضا حين مدّت إليه النّقود نظرت في عينيه فحدث شيء. اختفت العربة فجأة وكان لابدّ أن تغيب عزّة عن عينيه حتّى تظهر العربة من جديد وعلى أخشابها تتململ الخضر كما لو أنّها أحسّت بما انتاب صاحبها حينها.

- وعزّة؟

- عزّة لم تنم ليلتها كما كانت تنام. وجه ميلاد الذي انطبع في ذاكرتها منعها من إغماض عينيها. نامي يا عزّة..نامي ياعزّة. لا نوم ولا هم يحزنون. نهضت في عزّ الليل ودخلت المطبخ. تناولت حبّات الطماطم وأخذت تلعب بها. نعم تلعب. أخرجت الفلفل من الكيس البلاستيكي الأسود ومرّرت أناملها عليه. قشّرت الفول الأخضر دون أن تشعر. وضعت كلّ الخضر التي اشترتها من ميلاد على الطاولة كومة، كومة. ثمّ كوّمتها كومة كبيرة وراحت تتأمّلها كأنّها لم تبصر خضرا من قبل ثمّ نامت نوما متقطّعا يشبه نوم الدّيك. كانت أمّي تقول لنا "نوم السراديك".

- وميلاد؟

- ميلاد هو الدّيك الأكثر حذرا في الدّيوك. قبل أن يداهموا بيتهم ويأخذوا عزّالدين لم يكن يفيق من نومه إلاّ نادرا، وبعد أن انطبع مشهد أخيه مرفوعا بين أيديهم كخروف يعدّ للسلخ صار ديكا. أحيانا يخرج من البيت ويهيم في الأزقّة والأنهج. مرّة نام عند قبر أبيه في الجلاّز. ليلتها أقسم أنه سينتقم .

- ممّن؟

- أقسم على الانتقام فحسب. لم يفكّر ممّن. فيما بعد عرف غريمه. السيّد صاحب الاسم المحصّن شرح له كلّ شيء وأعطاه المفاتيح.

- مفاتيح ماذا؟

- مفاتيح الحقيقة.

- كم من مفتاح؟

- ليس لها عدد. كيف أقول لك؟ السيّد صاحب الاسم المحصّن فتح ذهنه وفسّر له ما يجري. ميلاد لم يفهم كما ينبغي ولكنّه أحبّ السيّد وصدّق كلامه.

- ماذا قال له؟

- لم أكن حاضرا معهما. لكنّ ميلاد فعل ما طلبه السيّد وتغيّر. نحن نقول تغيّر مائة وثمانين درجة. لم يعد هو ذاته. ميلاد بن مصطفى بن البحري بن عبد الله بن على أولاد عيسى.

- من هم أولاد عيسى؟

- أصل ميلاد من قرية أولاد عيسى على ضفاف نهر زرود. لقبه في البطاقة "زرود" ولكنّه يحبّ أولاد عيسى التي زارها مرّة واحدة مع أبيه مصطفى عندما كان طفلا. زارها قبل أن يولد أخوه عزّ الدّين بيومين. عامها غادر ميلاد المدرسة ولم يجتز امتحان السيزيام. سمع كلام والده ولم يغضب. ومن يومها وهو يعاشر عربته. تصوّري ثلاثين سنة أو تزيد وهو معها كيف لا يحبّ عربته وعندما مات أبوه صار يحبّها أكثر. ويوم رأى ابتسامة عزّة وهي تبتعد عنه في أوّل مرّة اشترت منه خضرا ازداد حبّه لعربته.

ميلاد لم يفهم لماذا أخذه أبوه إلى أولاد عيسى ولم يسأله. ولكنّه فرح برحلته الأولى إلى خارج العاصمة. تلك الرّحلة التي بقيت في ذاكرته حيث كلّ شيء على حاله. يومها حكى له أبوه حكايات كثيرة. يومها عرف اسم جدّ والده عبد الله، ذاك الاسم ليس مدوّنا في بطاقته. المكتوب هو ميلاد بن مصطفى زرود. اسم جدّه يعرفه من قبل، البحري وجدّته خميسة. قال له أبوه إنّ جدّه البحري جاء إلى العاصمة عام عشرة وسكن أوّل ما سكن مع خاله، خال جدّه ابراهيم. ابراهيم أخو نوّارة زوجة جدّ والده عبد الله ثمّ صار يعيش في المدرسة حيث عمل جنّانا طوال حياته. فهمت؟

- طول حياته؟

- نعم طول حياته، إلى أن مات عام 52. قبل الاستقلال.

- و المدرسة؟

- ما بها المدرسة؟ ما تزال مدرسة إلى يوم الناس هذا.

- والاستقلال؟

- اسمعي، الأحسن أن تنامي الآن. تسألين عن الاستقلال. ماذا تفهمين أنت في السياسة؟ العيب ليس فيك بل فيّ أنا. أنا الغبيّ الذي يحكي لواحدة مثلك. لو الدّنيا دنيا لما نظرت إليك بنصف عين. ارقدي يا دجاجة عاشوراء.

- أنا دجاجة عاشوراء؟ يا سردوك النّصارى، يا هيدوك، يا زعيم القوّادة، يا مجراب، يا لعور، يا بو زمزم..

5

(الزّيارة الأولى لسجن الخليفة)

- عزّ الدين ليس في حبس الخليفة. ذهبت ولم أجده. انتظرت أن أبصره بعينيّ لكنّه لم يخرج. كلّ المرابيط خرجوا إلاّ هو.

- وهل سألت عنه؟ ماذا قالوا لك ياكبدي؟

- لم يعطني أيّ منهم صرفا من عدل. قالوا إنّه رفض مقابلتي. هل يعقل هذا؟ لو كان هناك لجاءني يجري. قلت لهم أدخلوني إليه فرفضوا وضحكوا منّي.

- وماذا فعلت؟

- توسّلت. قبّلت الأيدي. بقيت أدور بينهم بلا فائدة. بدوا متّفقين كلّهم على نفس الإجابة. أخوك يرفض الزيّارة ولا يمكننا إجباره. هو حرّ. نحن نحترم إرادة السجناء.

- وهل أعطوه القفّة؟

- قالوا إنّهم سيسلّمونها إليه بعد وقت الزيارة حسب النّظام.

- إذن لماذا لم يخرج ليقابلك ما دام هناك؟

- لعلّه خاف أن ألومه. لا أعرف.

- وماذا فعل هو لتلومه؟ ولدي بريء. أنت تعرف.

- أعرف. قلت لعلّ. صعب عليه الموقف فلم يشأ أن أراه. الله أعلم.

- ربّي يفكّ غلبته ويصبّرني. ربّي يصبّرنا كلّنا. وآخرتها يا ميلاد؟

- يعمل الله.

- أختك دليلة جاءت اليوم وشبعت بالبكاء. قعدت في غرفته ساعات. أخرجت ثيابه. غسلتها كلّها وهي تبكي وتنوح. لم أستطع إسكاتها. بكيت معها. والله حرقت لي قلبي. تريد أن تراه. قالت لي إنّها تراه في منامها يرتدي الأبيض. حلفت لي أنّها تشمّ رائحة البخور في النّوم. أخافني حلمها. لا تقل لها بأنّك لم تقابله. ستجنّ. تعرف كم تحبّه. قل لها إنّه بخير ويسأل عنها وعن أولادها وأنّه سيخرج قريبا. يا ميلاد يا ولدي ابعث شكاية للمعتمد أو لرئيس الشعبة. اكتب للرّئيس. لا تترك أخاك في الحبس، ربّي يفتح أمامك الأبواب دنيا وآخرة.

- لا توصيني على عزّ الدّين. والله لو يأخذوني مكانه لما مانعت. لكنّي أحبّ أن أفهم الحكاية. لماذا سجنوه؟ ماذا فعل؟ يا أمّي قولي لي. هل تعرفين شيئا لا أعرفه؟

- أعرف ما الذي أعرفه أنا عن عزّ الدين ولا تعرفه أنت؟ ولدي مثل الملائكة. لم يضرّ أحدا في حياته. لا يخرج من فمه إلاّ الصلاة على النبيء. يصلّي صلواته في وقتها. تعلم هذا. كلّ الناس أصحابه. لا تترك الشكّ يخامرك لحظة في براءة أخيك.

- أنا لا أشكّ... أنا محتار وعاجز ومقهور.

- اسم الله عليك من القهر. ماذا أقول أنا يا بنيّ؟

- تعبت سأنام لي ساعة زمن.

(ربّما كانت المسافة الفكرة المسيلة للدّموع. سياط من أوراق الصبّار المجفّفة تنهال على الظهر العاري وتترك أخاديد ينزّ من أعماقها دم أزرق يصعد منه وهو يسيل إلى الخاصرة بخار ورديّ كثيف. إنّه هو مكان الدّابة. ربطوا العربة من صاريتيها

بحبل أدمى كتفيه وقفزوا جميعهم يصدرون ذات الصّراخ رافعين أذرعتهم إلى الأعلى في حركات موقّعة كما لو أنّهم يتبعون إشارة لا يراها.

كانت العربة أثقل من بلاد وكانت قدماه عكّازتين من خشب ولم تكن تلوح للطّريق نهاية غير الأفق. والظّهر الدامي يلمع مرتعشا وسياط الصبّار ترفع بأشواكها المسنّنة نتفا من جلد ولحم وتغيّر ألوانها تحت شمس صيف أعمى).

(الزّيارة الثانية لسجن الخليفة)

جدع أوّل يقف عند الباب الكبير. هات القفّة، بطاقة التّعريف، التّصريح بالزّيارة. عندك سجائر؟ لا. في القفّة؟ لا. عزّالدين لا يدخّن. ولدك؟ لا. أخي. اللحم ممنوع. مطبوخ. مطبوخ أو مشويّ ممنوع، فيه العظام. سأنزع العظام. لا. سأنزعها أنا. آدخل...

جدع ثان عند الباب الأوسط. هات القفّة، بطاقة التّعريف، التّصريح بالزّيارة. عندك سجائر؟ لا. في القفّة؟ لا. قلت لزميلك أنّه لا يدخّن. من؟ أخي عزّ الدّين. الاسم الثلاثي؟ عزّ الدين بن مصطفى زرود. من أين أنتم؟ من تونس. الأصل؟ لا أعرف. الماء ممنوع. الماء؟ أي نعم، القوارير الزجاجية لا. سأرجعها معي. لا، أنا سأرجعها. آدخل...

جدع ثالث عند باب القاعة الكبيرة. هات القفّة، بطاقة التعريف. هذه بطاقة التعريف وهذا التّصريح بالزّيارة، ليس معي سجائر وأخي عزّ الدين بن مصطفى زرود لا يدخّن. لا، بل يدخّن أكثر منّي. مدخنة على حالها، ما هذا؟ كسكسي بلا لحم ولا عظم. لا لا هذا؟ خبز عربي. كلّ هذا الخبز لشخص واحد؟ تكفيه خبزتان. تكفيه.آدخل، الصفّ الثاني.

وقف ميلاد في الصفّ الثاني. مرّت ساعة. جثا متّكئا بظهره إلى الحائط واضعا القفّة بين رجليه. دخل عشرة زوّار من الصفّ الأوّل وعشرة من الصفّ الثاني. وقف ميلاد. تقدّم مع من تقدّم. دخل عشرة زوّار آخرين من الصفّ الأوّل ومثلهم من الصفّ الثاني. تقدّم مع من تقدّم. فكّر في الجدعان الثّلاثة وفي العمدة السّلطاني الصّغير. قال له أوصيت عليك الجماعة. دسّ له ميلاد ورقة بعشرة دينارات في جيبه. والله لا. ورحمة أبي لن أسترجعها. نفرج بحول الله. تلك هي الدّنيا مرّة حلوة ومرّة مرّة. صار ميلاد مع العشرة الدّاخلين. اسمك؟ ميلاد زرود. اسم السّجين؟ عزّ الدّين زرود. هات القفّة سنعطيها له. كتب الجدع الرّابع اسم عزّالدين على ورقة صغيرة ورمى بها جانبا. تقدّم ميلاد مع الجماعة إلى آخر القاعة حيث حفرت في

الجدار فتحات مربّعة. عشر على اليمين وعشر على الشمال. كان وجه عزّالدّين في الفتحة الثّالثة. شاحبا كان. غائر العينين كان.

آه يا أخي لو رأيته. أنا لم أعرفه. بل أحسسته. هو أخي الصّغير. أقسم بالله العليّ القدير لو كان عندي سلاح لأطلقت عليهم النّار. مسخوا أخي. كسّروا أسنانه. مددت إليه يدي فمدّ يده وشدّ على أصابعي. أحسست أنّه يعتذر منّي أو يشكو إليّ أو يصرخ دون صوت. كان فمه مغلقا لكنّي سمعت صوته. كان عواءا. أينك يا أخي؟ ماذا فعلوا بك؟ كان خوارا سمعته بأعصابي. قل لي هل فعلت شيئا؟ ماذا؟ قل شيئا. وأمّي كيف هي؟ اشتقت. بخير إذا أطلقوا سراحك. ضربوك؟ لا يهمّ وأمّي؟ قل لها إنّي سأخرج قريبا. قل لها أن تدعو لي. متى تخرج؟ لا أعلم. بربّي قل لي ماذا فعلت؟ لم أفعل شيئا ورأسك، ورحمة بابا.

رأيتني آكل بشرا. أغرز أنيابي في رقبته وأنتزع لحمة وأبتلعها. وجه عز الدين أمامي في إطار مربّع لا يكفي لأرى كتفيه. الدّم يسيل من فمي وأنا أمضغ لحما ساخنا وأنبح كالكلب. ثمّ سمعت أصواتا متداخلة. لماذا قبضوا عليك؟ الحكاية طويلة. احك. لا أستطيع الآن. ما بك ترتعش؟ هل أنت مريض؟ احك لي أنا أخوك، ورحمة ابي لم أنم ليلة منذ سجنوك. أمّك تلومني هي لم تصدّق أنّي لا أعرف شيئا. أختك دليلة تسلّم عليك، حالها حال، لو تدري. عائشة تريد أن تزورك. ماذا أقول لهنّ؟ تعبت. منصور الحشيش يقول إنّك دخلت في جماعة الإرهاب. أريدك أن تخرج من هنا وتفقأ عينيه. هل كلّموك؟ من؟ الحاكم؟ سألوني عمّا في القفّة، أخذوا نصفها، لم يروا الملوخية، إنّها تحت المنديل. أخذوا الخبزات واللحمة والماء. لا. أقصد هل استدعوك إلى المركز؟ هل استجوبوك؟ لا. لم أذهب إلى المركز، العمدة أحضر لي ترخيص الزيارة منذ يوم الجمعة. الحمد لله. لا تسمع كلام النّاس. أنا لست إرهابيّا. أنا أحبّ بلادي أكثر منهم. يجب أن تقابل رشيدا صاحبي. هو سيحكي لك كلّ شيء. من رشيد؟ جئناك مرّة إلى ساحة برشلونة أنا وهو، الأسمر الطويل، هل تذكّرته؟ لا. ذلك الذي قال لك شغّلني معك على العربة فقلت له أنّك لا ترى مانعا ولكنّ العربة ترفض. آه تذكّرته، ما به. هو يعرف كلّ شيء. اذهب إليه.

أين؟ خاله عنده مقهى في الزّهروني، اسمها مقهى السلامة، تجده هناك في الصباحات. هو سيعرفك.

- انتهت الزيارة.

- سأعود.

- لا تخبر أمّي عن أسناني.

- حافظ على روحك.

- قل لها إنّي بخير.

- ربّي معاك.

- سلّم لي على دليلة وعائشة.

- انتهت الزّيارة.

6

- ما زلت غاضبة منّي يا عزيزتي؟

- لماذا أغضب منك؟

- لأنّي قلت لك كلاما.

- أيّ كلام؟

- دجاجة عاشوراء. وأنت قلت لي سردوك النّصارى.

- لا أحبّ الدّجاج في بيتي. لم تعد لي صحّة لأمسح فضلاته.

- عندما عاد ميلاد وأبوه من أولاد عيسى جلبا معهما دجاجتين وديكا عربيّا بريش أحمر لمّاع وغرّة سوداء. صالحة أحبّت الدّيك والدّجاجتين ولم تذبحها كما طلب زوجها. ومن يومها لم ينقطع الدّجاج من البيت. لكلّ دجاجة اسم. صالحة تطلقه عليها وتناديها به. لا تخطيء صالحة في أسمائها أبدا. أحيانا حين تكون وحيدة في البيت تحدّثها. تجلس أمامها وهي تنقر طعامها وتشرع في التكلّم معها.

- مع الدّجاجات؟

- نعم مع الدّجاجات وأحيانا مع الدّيك.

- ويكلّمها؟

- ربّما.

- ساعات يفاجئها مصطفى وهي تقول أشياء للدجاجات فيضحك منها. ثمّ حين توفي صار ميلاد يفاجئها ولكنّه لا يضحك. المشهد صار مألوفا بالنّسبة إليه، وهو يعرف الدّيك الأوّل صاحب الرّيش الأحمر والغرّة السّوداء. كان هو من قدّمه لأمّه ممسكا إيّاه من ساقيه المربوطتين بقطعة قماش. ذلك الدّيك هو جدّ الدّيكة التي

عاشت في بيتهم جميعا. ذلك الدّيك ما يزال حيّا في ذاكرته، وهو الذي يصيح في رأسه كلّ صباح وليس أحفاده. كان ذا صوت جميل وقويّ. صالحة تقول إنّه كان يغنّي، أمّا ديكة اليوم فتعوعش لا غير.

حين خطف البوليس عزّ الدين نام الدّيك واختفى صوته من ذاكرة ميلاد. لذلك صارت الشّمس تستيقظ قبله وتجلس وسط الدّار تنتظره وما أن تراه يغادر غرفته حتّى تتركه يحضر عربته وتذهب هي لتضيء البلاد.

- أيّ بلاد؟

- هذه. بلادنا.

قلت لك إنّ ميلاد تغيّر. حتّى صوت عربته تغيّر. هو لم يعد يسمعه بالمرّة ولكنّه تغيّر. صار صوتا رتيبا وخافتا وأحيانا يعلو بشكل حادّ وكأنّه يريد إثارة انتباه ميلاد الغارق في غيبوبة لم يستطع الخروج منها.

مرّت سبعة أشهر على حبس عزّ الدّين. مرّت سبعة أشهر على صمت ميلاد. ذوى صوته الذي كان يلعلع في المحطّة. مرّت سبعة أشهر على كلمة "بابا" تطلقها عزّة في عتمة غرفتها. مرّت سبعة أشهر على آخر خدش في ظهر ميلاد.

- مرّت سبعة أشهر على نوم الدّيك.

- أيّ ديك؟

- لا تشغلي بالك بأمر الدّيك.

- أخبرتك عن الليلة التي قضتها عزّة تلعب بالخضر وتقشّر الفول.

- لا

- أخبرتك لكنّك نسيت كالعادة.لا يهمّ تلك الليلة ليست شيئا يذكر أمام الليالي الأخرى التي عاشتها حين انقطع ميلاد عن زيارتها. سبعة أشهر. عدّي كم فيها من ليلة. ذهبت إليه عند الكلتوسة فوجدته واجما يحرّك شفتيه كأنّه يكلّم أحدهم. سلّمت عليه فلم يتعرّف صوتها. قالت له "مالك؟" فاجأه حضورها. بدا في البداية كأنّه لا يعرفها ثمّ استفاق. أمسك بكفّها وراح يسأل عن حالها وعن جليلة ثمّ سكت فجأة.

أحسّت عزّة أنّ هناك شيئا حصل. سألته عن صالحة أمّه فأجاب بأنّها بخير وأضاف دون أن تسأله، عزّالدّين في الحبس. وحكى لها الحكاية وهي تسمع. الحكاية كانت متقطّعة، فميلاد يصبّ صحفة سحلب ويزيّنها باللّوز المرحيّ والسكّر ويقدّمها للحريف ويعود إليها ليواصل سرد الأحداث. وقتها لم يكن قد مرّ على اعتقال عزّ الدين أكثر من أسبوعين. وعدها ميلاد بأنّه سيأتي إليها قريبا.

مرّت سبعة أشهر وعزّة تنتظر زيارته. قابلته ثانية وثالثة. تأتي إلى ساحة برشلونة تسأله عن أخبار عزّ الدين. يعدها بالزّيارة ولا يفعل. لقد اشتاق إليها كما اشتاقت إليه وقال لها و شوقه يكاد يخرج من عينيه " توحّشتك على قدر صبري في الدّنيا" ولكنّه ما إن تبتعد عنه حتّى يعود إلى غيبوبته حيث لا يبصر غير وجه أخيه عزّ الدين غائما كما لو أنّ دخانا كثيفا يفصل بينهما.

بعد أن زاره في السّجن انقشع الدخان ولم يعد يرى وجه أخيه غائما بل صار يرى مربّعات صغيرة تتراقص أمام عينيه، تعلو وتنخفض وتبتعد وتقترب ومن حين إلى آخر يظهر عزّ الدين داخل أحدها وهو يصرخ.

- يصرخ؟

- لأنّه مسجون.

- وعزّة؟

- عزّة سلّمت أمرها للأقدار. أختها جليلة بدأت تعاني نوبات ضيق تنفّس متباعدة وبسيطة في البداية ثمّ حادة ومتقاربة بعد ذلك. الأدوية التي وصفها لها الطبيب لم

تفعل شيئا. أخذتها إلى مستشفى عزيزة عثمانة، اكترت سيّارة إكسبراس، ساعدها صاحبها وإحدى جاراتها على حمل جليلة ووضعها داخل العربة. فرشت لها زربيّة صغيرة بسطت عليها لحافا أبيض وركبت هي بجانبها.

بعد أقلّ من عشر دقائق توقّفت الإكسبراس أمام باب عزيزة عثمانة. ليس لنا سرير شاغر. خذوها إلى مستشفى الحبيب ثامر. جليلة تتنفّس بعسر. عزّة لم تعرف كيف تتصرّف. توسّلت إلى ممرّضتين وممرّض بلا جدوى. بكت عزّة. جليلة لا تتنفّس. ضربت عزّة على خدّيها وجذبت الممرّض من مئزره الأبيض إلى السيّارة. دعت له بكلّ ما تعرف من أدعية. تحرّر شعرها من رباطه وغطّى وجهها. الممرّض أعجبه شعرها فجاء بسرير متحرّك ووضع عليه جليلة وأدخلها إلى الممرّ. شَعر عزّة شكر الممرّض. سائق الإكسبراس تناول أجرته وانصرف.

باتت عزّة ليلتها تلك في ممرّ المستشفى جالسة على كرسيّ بجانب سرير أختها التي وضعوا لها قارورة أكسيجين حتّى لا ينقطع نفسها...

"يا جليلهْ يا جلّولهْ،

هجموا عليكْ أولادْ الغولهْ،

ردّي البابْ يا مهبولهْ"

.....

"يا عزّهْ يا بزّهْ

يا سيقانْ الوزّهْ"

تذكّرت عزّة وهي تغالب النّوم. الصّمت يخيّم على المستشفى وهي تجري خلف أختها جليلة حول بيتهم القديم. لا أحد يسبق جليلة في الجري حتّى الضّاوي ولد عزيزة البلبلية لم يغلبها. الضاوي الذي كان يضع الدّيدان في الخبز ويأكلها، يضع

الخنافس في الخبز ويأكلها، يضع الجراد في الخبز ويأكله... الضّاوي ذو الأسنان المذبّبة يأكل أيّ شيء. المهمّ أن يوضع في الخبز.

" وِينُو الضّاوي يا تبّيبْ

بَعْدُو ما بقاليشْ حبيبْ

قالوا الضّاوي كلاهْ الذّيبْ

وأنا نحلبْ في البقراتْ "

كـــان الضّاوي ذاهبا إلى المدرسة في الفجر. هجمت عليه الذّئاب وافترسته. لم تترك منه سوى الرّأس مشوّهة ومزقا من أدباشه وكرّاساته. كان وحيد أمّه. حبلت به بعد سنين من زواجها. لمّا بلغها الخبر كانت تحلب بقرة من بقراتها. صاحت صيحة أفقدتها السّمع. ولمّا أخذت رأس طفلها المقطوع بين يديها أخذت تنوح نواحا غريبا وتضرب رأسها على الحجارة حتّى سقطت مغشيّا عليها ولم تفق إلاّ بعد أيّام في حالة هستيريا صاحبتها إلى أن ماتت ودفنوها بجانب رأس ابنها الضّاوي.

عزّة لا تنام ولا تفيق. رأسها ينوس فيما الأكسيجين يزور صدر جليلة جرعة جرعة، والصّمت يكبر حولهما ويتحوّل شيئا فشيئا إلى قبضتين كبيرتين تطبقان على رقبة عزّة فتفيق مذعورة تكاد تصرخ. القبضتان تشبهان قبضتي أبيها توضعان على فمها فلا تقدر على التنفّس ثمّ ترتفعان عنها شيئا فشيئا حين تهدأ وتذهبان في الظلام إلى جسدها تجوسانه، تضغطان هنا وهناك، الصّدر الصّغير، البطن المرتعش، الفخذان المشدودان إلى بعضهما. العنق، الشّعر المنسدل، الشفتان المضمومتان... القبضتان ترفعانها وتضعانها على الجسد الممدّد تحتها وتشرعان في تدليكها وهي صامتة، تريد أن تصيح لكنّ صوتها لا يطاوعها ويغمرها شعور بالانقباض والتوتّر وتسري فيها ارتعاشات متكرّرة فتلتوي وهي تشمّ رائحة الجسد الذي يلتصق بها ويتأوّه تأوّها مكتوما وتأخذها القبضتان من جديد وتضعانها حيث

كانت وتسويان أثوابها وتردّان عليها الغطاء فتنكمش على نفسها انكماشا وتنخرط في بكاء بلا صوت.

- عزّة تبكي؟

- نعم عزّة تبكي.

- وميلاد؟

- ميلاد لم يكن معها آنذاك. كانت جليلة منبطحة غير بعيد عنها إنّما هي لم تبصر القبضتين ولم تسمع بكاء أختها وربّما سمعته. لا أدري. وتنهض عزّة في الصّباح مهدودة. وجهها مدخّن وأطرافها متكلّسة، تنظر بعينين محمرّتين ولا تتكلّم إلاّ إذا خاطبها أحدهم، كلمة أو كلمتين ثمّ تصمت.

أنا أحدّثك عن أشياء قديمة. عزّة نفسها نسيت أغلبها. حتّى تلك الأحداث التي مرّت بخاطرها وهي جالسة أو نائمة بجانب أختها لا يمكن القول بأنّها تذكّرتها فهي لم تكن مستيقظة تماما، وحين استعاد المستشفى حركته في الصّباح نسيتها كأنّها لم ترها أبدا. سأقول لك شيئا لا أحد يعرفه غير عزّة.

يوم مات أبوها فرحت فرحا شديدا. أعلمتها خالتها بموته محاولة تخفيف وقع الخبر عليها قدر الإمكان، فما كان من عزّة إلاّ أن صاحت صيحة قويّة رافعة يديها إلى الأعلى ثمّ انطلقت تجري في طريق وادي السبّاخ وهي تصرخ " بابا مات..بابا مات " وخالتها تجري في إثرها خائفة عليها من أن ترمي بنفسها في عمق الوادي. لكنّ عزّة لم تكن تفكّر في شيء ممّا خطر في ذهن خالتها فقد كانت تحتفل على طريقتها بموت عذابها اللّيليّ. سيكون بإمكانها بعد ذلك اليوم أن تنام مثلما تنام أختها جليلة دون خوف من القبضتين الخشنتين تحوّلان جسدها إلى كتلة مرتعشة جاهزة للانفجار. فهمت الخالة تصرّف الصّغيرة على كونه أثرا من آثار حزنها الشّديد على موت الوالد، لذلك أخذتها معها واعتنت بها لتهوّن عليها مصابها.

ليس هذا ما أريد قوله. هذا يعرفه الجميع. أمّا ما لا يعرفه أحد فهو التالي. اسمعي.

مات أبوها في المساء لذا قرّروا دفنه في الغد. فكان أن سجّوا جثّته وسط غرفته. عزّة تسلّلت إليها في غفلة من أهلها ومن المعزّين الذين ملؤوا دارهم واقتربت من جسد والدها الممدّد هامدا لا حراك فيه ونظرت إليه كما لم تنظر إليه من قبل. حرّكت يديه بأصابعها بشيء من الخوف وإذ تأكّدت أنّه بات غير قادر على الحركة أخذت ترفس اليدين بقدميها الحافيتين بكلّ ما تملك من قوّة ثمّ رفعت إحداهما بيديها الصّغيرتين وراحت تمرّر الكفّ الباردة على وجهها وصدرها وبطنها وبين فخذيها.

- أبوها الميّت؟

- نعم أبوها الميّت. هي لم تكتفي بذلك.

- ماذا فعلت أيضا؟

- قبل أن تغادر الغرفة فرجت رجليها وبالت عليه، على وجهه وصدره وقدميه. كانت تبدو وكأنّها تبول وترقص ولكنّها لم تكن ترقص، كانت تشعر بآلام في جنبيها وبين كتفيها فتتحرّك وفق مشيئة الألم الذي لازمها أيّاما بعد ذلك ثمّ تخلّصت منه تدريجيّا. كانت في العاشرة من عمرها. تصوّري.

- و ميلاد؟

- قلت لك ميلاد لم يكن معها آنذاك. هذا وقع في قريتها قبل أكثر من عشرين سنة من مقابلة ميلاد. يعني قبل أن تتزوّج جليلة أختها وقبل أن تأتي هي إلى العاصمة. لا تخلطي في الحكاية.

- أيّ حكاية؟

- اسمعي الأحسن أن أسكت الآن خير من أن أضرب رأسي على الحائط.

- ما بك تصرخ في وجهي؟

- وجه... هذا وجه؟ اقعدي فيها يا عجوزة الستّوت...

- أنا عجوزة الستوت يا طوّار الليل يا بيّاع الخردة يا جبري يا بومة الكرم؟ اخرج من داري يا هامل...

7

خيّل إلى ميلاد أنّه سمع صياح الدّيك فاستفاق من نومه ساحبا الملحفة وانتصب واقفا ثمّ تقدّم خطوتين ورفع مزلاج الباب الحديديّ فهاجمه ضوء الفجر.

أغمض عينيه واجتاز عتبة الغرفة الرّخامية متّجها إلى دورة المياه. سمع سعال أمّه. سحب منشفة من على حبل الغسيل الذي يمتدّ على طول صحن الدّار. ألقى بها على كتفه وواصل طريقه.

صالحة سمعت وقع خطواته فأنزلت قدميها من السّرير وانتعلت خفّيها البلاستيك. هي تعلم أنّ ولدها لن يذهب إلى العمل، لذلك لم توقظه بعد أن صلّت الصّبح. عادت إلى فرشتها وراحت تفكّر في عزّ الدين داخل سجنه وتذكّرت زوجها. رأته جالسا على جلد خروف وأمامه عزّ الدين ممسكا كرّاساته وهو يمدّها إلى والده الواحدة تلو الأخرى ليكتب له اسمه ولقبه على الصّفحة الأولى. عزّ الدين زرود. ثمّ يكتب اسم المدرسة. المدرسة الابتدائية كتّاب الوزير.

كان عزّ الدين يضع سبابته على الحروف التي ترتسم على الورق ويكرّر ما يقوله أبوه. كرّاس المحفوظات هذه نغلّفها بغلاف مزركش. هات تلك اللفّة هناك. يتناول مصطفى الغلاف ويعمل فيه المقصّ بيدين بارعتين ويكسو الكرّاس. يأخذها عزّ الدين ويضعها على ركبتيه مورّقا إياها ناظرا إلى المربّعات التي تملأ أوراقها متلمّسا الورق الشفّاف بلسانه. لا تبللها بلعابك يا جرو. في العام القادم سنغلّف عددا أكبر من الكرّاسات وستكتب اسمك وحدك. ستتعلّم الكتابة .

جاء العام القادم، لكنّ مصطفى لم يكن في البيت ليغلّف له كتبه وكرّاساته، ولم يره مرّة واحدة يكتب اسمه كاملا.

تذكّرت صالحة فرح مصطفى زوجها بحرف الباء الأوّل الذي رسمه عزّالدين على لوحه بالطّباشير. كان يدفع باب الدّار، باب الخشب القديم ويدخل العربة، حين جرى نحوه عز الدين رافعا لوحه أمام جبهته وهو يصيح " كتبت باء يا بابا كتبت باء". ترك مصطفى العربة وتناول اللّوح من يد ابنه ورفعه إلى حضنه مكرّرا

"يعطيك الصحّة يا رجّال" ثمّ وضعه على حافة العربة ودفعها إلى السّقيفة. كتب عز الدين يومها عشرات الباءات، بالفتحة وبالكسرة وبالضمّة وقرأها لأبيه مرارا وتكرارا.

الله يرحمك يا مصطفى، تمتمت صالحة وهي تجذب باب غرفتها. وإذ أبصرت ميلاد وسط الدّار يعيد المنشفة على حبل الغسيل بادرته قائلة:

-صباح الخير يا بابا.

ردّ ميلاد ودنا منها مقبّلا رأسها مرّات، فضمّته صالحة وربّتت على ظهره.

-برّه إلبس دبشك وإيجا أفطر.

لو كان عز الدين في البيت لطرق ميلاد باب غرفته كما كان يفعل كلّ يوم وهو ينادي:

" عزّ الدين هيّا قوم نفطرو".

فيأتيه صوت أخيه من الدّاخل:

" هاو جيت سيدي، صباح الخير".

أو " صباح الخير سيدي. هاني جاي ".

نظر ميلاد إلى باب غرفة عزّ الدّين المغلق نظرة قصيرة ودخل غرفته وفي إثره كان صوت أخيه يتردّد:

" هاو جيت سيدي..."

عندما غادر ميلاد بيتهم، كانت الشّمس قد أكملت عملها. ليس كلّ العمل إنّما أغلبه. أضاءت مناطق وتركت مناطق أخرى. وحين أبصرته يغلق الباب ويأخذ طريق باب الجديد ابتسمت في سرّها وراحت تدير ظلاله حوله فبدا وهو يمشي محاطا

بمجموعة راقصة تتّبع إيقاع هواجسه. ظلّت كذلك حتّى بلغ مقهى النّادي الإفريقي وطلب قهوة فيلتر. عندها تركته وانطلقت إلى شأن لا يعلمه غيرها.

شرب ميلاد قهوته في رشفتين. دفع للنّادل ثمّ أوقف سيّارة أجرة وركب بجانب السّائق.

- الله يعينك.

- يسلّمك. تفضّل؟

- الزهروني.

- الله يبارك.

بمجرّد أن انطلقت السيّارة أدار السّائق زرّ الرّاديو فعلا صوت الدّكتور حكيم يقرأ نصائح طبّية عن فوائد البيض، المطبوخ ينفع لكذا والمسلوق ينفع لكذا وكذا. أبيض البيض يصلح لكيت، الأصفر لكيت و كيت. حين وصل إلى القشرة نطق ميلاد:

-بربّي سكّر عليه خير من أن يجعلنا نأكل القشور.

أجاب السّائق:

-خلّيه يحكي. هو يأكل في اللّحم والحوت وينصحنا بالطّماطم و البطاطا والمعدنوس. تعرف. مرّة قال لك يا سيدي إنّ الرّجل الذي يأكل اللّحم يصيبه مرض الكولستيرول والله وبيني وبينك يكذب علينا. وبعد كلّ شيء، كيلو اللّحم بعشرة آلاف فرنك وأنا ألهط يوما كاملا ولا ألحق. ماذا يقول أبو العيلة؟ قال لك لا تأكلو اللّحم ...

ندم ميلاد على الكلمات التي قالها. فالسّائق لم يصمت مطلقا " والله الدّكتور حكيم أهون من هذه الكارثة " ردّد في سرّه، وحين توقّفت السيّارة فرح.

-اتفضّل. ديناران ومائتان وخمسون. سامحني كان غلطت معاك.

دفع له ميلاد أجرته ونزل من السيّارة فيما واصل السّائق كلامه.

كانت المرّة الأولى التي يذهب فيها إلى الزّهروني. "يا فتّاح يا عليم" فكّر في أن يسأل أحدا عن مقهى السّلامة ثمّ عدل عن الفكرة بلا سبب. خيّر أن يتمشّى على طول الشارع الذي بدا أمامه بلا نهاية. أعجبه مشهد النّخيل السّوري الذي يرتفع على جانبيه وقد أحاط بكلّ نخلة سياج من الأسلاك الدّائريّة دفعا لكلّ عابث.

مرّ بجانب مقاه عديدة ولكنّه آثر ألاّ يتوقّف عند أحدها مرجئا السّؤال عن مقهى السّلامة إلى ما بعد. هو لم يتصوّر أن يقطع كلّ تلك المسافة على قدميه دون أن تظهر للشّارع نهاية، لكنّه لم يتوقّف إلاّ حين تغيّرت أشكال البنايات من حوله وغابت المقاهي والدّكاكين. لم يعد يبصر غير مستودعات إصلاح السيّارات وتنظيفها، عندها استدار وعاد من حيث جاء.

لعلّه كان دون أن يدري يؤجّل معرفة الحقيقة. لعلّه بدأ يشعر بالخوف من شيء مجهول. لعلّ المشي في تلك السّاعة عادة منغرسة في ذاته فلم يقدر على إبطالها. لعلّ الشارع أعجبه فعلا وأغراه بالسّير فيه. لعلّ قدميه تصرّفتا دون إذن منه. لعلّ شيئا خفيّا كان يتحكّم في حركاته ذاك الصّباح. لعلّ الوقت لم يحن بعد بكلّ بساطة فقد سأل أحد العابرين عن المقهى وأخبره أنّه غير بعيد وهو يقابل الجامع وسار نحو المقهى وجلس إلى طاولة من طاولاته وطلب شايا أخضر وأمضى ساعة هناك دون أن يكلّمه أحد وأعاد طلبه مرّة ثانية بلا أيّ نتيجة وهمّ أن يسأل النّادل عن رشيد ولم يفعل ولمّا بلغت الشّمس مكانه وقف عن كرسيّه وانصرف بنفس الطّريقة التي جاء بها. أوقف سيّارة أجرة وركب بجانب السّائق مكتفيا ببيان وجهته.

-باب الجديد.

لم ينطق طوال الطّريق بكلمة واحدة لكنّ ما مرّ بخاطره من كلام يؤلّف قصصا كثيرة.

8

قلت لك ألف مرّة، هذه النباتات لا نسقيها. انتظري حتّى تأتي ابنتك. ستقلب علينا الدّنيا. أنت تعرفينها. ستتركك أنت وتمسك في خناقي.

- من ستمسك في خناقك؟ والله ألوي لها عنكوشها.

- ابنتك.

- ما اسمها؟

- عندنا بنت واحدة واسمها نورة.

- نورة...وأين هي الآن؟

- في القيروان. لا إله إلاّ الله. تعمل هناك.

- وميلاد؟

- ما دخل ميلاد في ابنتنا؟

- يعرفها أم لا؟

- لا يا امرأة. ميلاد لا يعرف نورة ولا يعرفني ولا يعرفك.

- وعزّة؟

- عزّة لا تعرفني ولا تعرفك أيضا ولا تعرف نورة.

- نورة من؟

- اللّه يطوّلك يا روح. انسي نورة الآن. بعد يوم أو اثنين ستأتيك بنفسها وتفاهمي معها.

أنا لم أحك لك عن الرّجل الذي توسّط لميلاد عند الحاكم؟

- الله يسمّعنا الخير.

- خير؟ اسمعي واحكمي. ميلاد ذهب إلى مقهى السّلامة ثلاث مرّات ولم يقابل رشيدا. صحيح أنّه لم يسأل عنه. لم يطلب منه عزّالدين حين زاره في السّجن أن يسأل عنه. قال له هو سيعرفك. لو كان رشيد هناك لكلّمه. مجرّد مصادفة لا غير. رشيد في الجنوب. كان من المفترض أن يبيت هناك ليلة واحدة ويرجع إلى تونس. أرسله السيّد في مهمّة، ثمّ أرسل في إثره من يأمره بالبقاء في مقرّ قفصة ولا يبارحه حتّى يسمح له. الحاصل أنّه لم يكن في مقهى السّلامة في المرّات الثلاث التي ذهب فيها ميلاد. كلّ شيء بالتّسهيل. في الحقيقة ميلاد لم ييأس. كان عازما على العودة إلى الزّهروني ومقابلة رشيد. لكنّ عليه أن ينصب عربته في المحطّة حتّى لا يحتلّها غيره من باعة البيض وخبز الطابونة والفول والحمّص.

أمّه قدّرت الأمر ودعت له بالبركة والتّوفيق.

" ربّي يبارك لك يا ميلاد يا ولدي ويوفّقك دنيا وآخرة."

عندما سمع ميلاد دعوات أمّه، أحسّ برغبة في البكاء، لذلك غادر البيت وسار هائما يكاد لا يشعر بما حوله إلى أن بلغ مقهى الحجاج. جلس إلى أوّل منضدة اعترضته في التيراس. هو ليس مكانه الذي اعتاد الجلوس فيه مع أصحابه. لو خطا خطوتين لبلغه وقد كان شاغرا عند وصوله. لكنّه لم يفعل. الجماعة تسمّي التيراس السّقيفة. الفضاء الدّاخلي للمقهى ضيّق لا يتّسع لأكثر من منضدتين. أمّا السّقيفة فهي مراح. فيها اثنتا عشرة منضدة. ستّ على اليمين وستّ على اليسار، يتوسّطها ممشى يصل الدرجات الثلاث التي تنزل إلى البطحاء.

البطحاء ساحة رحبة.ثلاثة أنهج كبيرة تصبّ فيها خلقا كثيرا. تنغل على امتداد النّهار. من لا يعرف اسم المقهى يقول مقهى البطحاء. هو الوحيد هناك. المقهى الأقرب إليه مشربة صغيرة تسمّى مقهى الصّيدلية لأنّه يحاذي صيدليّة. أغلب النّاس هناك لا يقولون صيدلية بل "سبيسريّة" هكذا. لا أعلم مصدر هذه الكلمة. هم

يقولون " مقهى السبيسرية ". تشرب قهوتك وتمضي في حال سبيلك. لا مناضد ولا كراس ولا لعب ورق ولا ديمينو.

ميلاد بارع في لعبة الورق" الشكبّه" براعة لا يشكّك فيها أحد من روّاد المقهى القارّين، أولاد الحي. أبوه مصطفى كان بارعا أيضا. إذا كان في لعبة تحلّق حول منضدته المتفرّجون. لكنّه لم يعد يلعب كثيرا مثل زمان. هو يقول " يا حسرة على بكري كانوا يأتون لمواجهتي من الأبعاد، أمّا اليوم فلا أحد يحسن مسك الورق حتّى".

منذ اعتقلوا عزّ الدين لم يضع يده في لعبة. يجلس مع أصحابه، نعم. ولكنّه يظلّ صامتا أغلب الوقت، يستمع إلى أحاديثهم ولا يقول شيئا، مجرّد جمل قصيرة أو نتف كلمات ثمّ يعود إلى صمته.

" والله القعدة لا تحلو إلاّ بوجودك يا بينو".

" يأخذ بخاطرك يا سي عبد الله".

" كلّ أزمة ولها حلّ. لا تقنط من رحمة ربّي".

" ونعم بالله يا شيخ عبد الكبير. أمّا الواحد لحم ودم".

منصور الحشيش يتحاشى النّظر إلى ميلاد في عينيه أمّا عبد السلام عامر وهو الأقرب إلى ميلاد فإنّه الوحيد الذي يسأله عن أخيه فيجيبه باقتضاب...

حين جلس ميلاد في السّقيفة بعيدا عن مكانه العاديّ، لم يفكّر في أصحابه. هو لم يأت للقائهم. كان يريد الهرب من عيني أمّه صالحة. خاف أن يبكي أمامها فيزيد في تعميق جرحها. عليه أن يظلّ متماسكا مهما حصل. عزّ الدين سيخرج طال الزّمن أو قصر. المشكلة في أمّه وأختيه. بدأ يشعر تجاههنّ بالذّنب وكأنّه السبب في بقاء أخيه داخل الحبس. مرّة كاد أن يصرخ في وجه دليلة بأن لا حول له ولا قوّة، لكنّه تراجع ووعدها بأنّه سيفعل ما يقدر عليه وأكثر.

-أين أنت يا بينو؟

كان عبد السلام عامر. صعد الدرجات الثلاث. ورغم أنّ ميلاد كان متّجها في جلسته إلى مدخل المقهى فإنّه لم يره. قال ذلك وأضاف:

-ذهبت إلى بيتكم فقالت لي أمّك إنّك خرجت. ما بك تجلس هنا؟ هيّا نغيّر الطّاولة.

وقف ميلاد وتبع عبد السلام إلى منضدتهم القديمة. وبعد أن جلسا سأل ميلاد:

- لا بأس؟

- إن شاء الله لن يكون إلاّ الخير. لم تشرب قهوة؟

- وصلت الآن.

التفت عبد السلام إلى جهة باب المقهى الدّاخليّ وصاح:

-يا زرقة هات لنا قهوتين.

ثمّ نظر إلى ميلاد قائلا:

-اسمع يا بينو، يظهر لي أنّ الأمور ستفرج.

- أيّ أمور؟

- عزّالدين.

- آش تقصد يا عبد السّلام؟

- أولاد الحلال دلّوني على من سيساعدنا.

- قل يا صاحبي الله ينوّرك.

قاطعهما زرقة النّادل وهو يضع قهوتي الفيلتر وكأس ماء على المنضدة.

-اتفضلو بالشفاء.

ردّ عبد السّلام:

-يعطيك الصحّة يا زرقة.

سارع ميلاد إلى إعادة طلبه بأكثر إلحاح:

-تكلّم يا عبد السّلام.

أخذ عبد السّلام قهوته وترشّف منها رشفات وقال:

- يا سيدي قالوا لي على واحد واصل. عنده معارف كثيرة ويقضي. قال لك يعرف عباد ربّي ومهما كانت المشكلة مع الحاكم أو مع إدارة من الإدارات إلاّ و يحلّها.

ارتعش ميلاد من رأسه إلى قدميه وقال وهو يهمّ بالوقوف:

-نذهب إليه الآن. هيّا.

أمسكه عبد السّلام وضغط على كتفه قائلا:

-اجلس يا ولدي واسمعني. لم أكمل كلامي.

- ها قد جلست. أكمل.

- أنا لا أعرفه شخصيّا. حدّثني عنه نسيبي. كانت له مشكلة مع البلدية. أغلقوا دكّانهم في الشوّاشين ونزلوا عليهم بخطيّة. أعاد فتح الدكّان بتصريح رسميّ وأعفاهم من دفع الخطيّة. حلف لي نسيبي أنّه فعل كلّ ذلك بالتاليفون من مكتبه.

- إيه... هذا الكلّ بلا مقابل؟

- لا أخذ ألف دينار. أمّا يستأهل أكثر لو لم يتدخّل لخسروا الدكّان ولسدّدوا سبعة آلاف دون احتساب أتعاب المحامين وعذاب المحكمة وشماتة العباد. قلت لماذا لا نذهب إليه ونحكي له حكاية عزّ الدين. لعلّ وعسى.

- والله لو يطلب ما يطلب. المهمّ يخرج عزّ الدين. الله يرحم والديك يا عبد السّلام قل لنسيبك يوصلنا إليه. فقد هدّني الهمّ والله.

- اتّفقنا. اللّيلة أكلّمه. كن مطمئنّا.

كان ذلك يوم الثلاثاء. يوم الجمعة ذهبوا إليه معا. ميلاد وعبد السّلام ونسيبه توفيق. تذكّري هذا اليوم.

دخل توفيق إلى مكتب سي حسني ثمّ خرج ونادى ميلاد الذي دخل بدوره مسلّما. كان سي حسني جالسا وراء مكتب كبير. أكبر من مكتب العمدة السّلطاني بثلاث مرّات.

- اتفضّل أقعد سي ميلاد.

- يرحم من ربّاك.

جلس ميلاد فسأله سي حسني:

- حكى لي سي توفيق على مشكلة أخيك. قل لي في أيّ سجن هو؟

- الخليفة. أمّا والله وعزّة قدرك عزّ الدين مظلوم. اتّهموه باطلا.

- اسمعني يا سي ميلاد. مظلوم أو غير مظلوم هذه مسألة يجب ألاّ تفكّر فيها. ما حصل حصل. دعنا نفكّر كيف نخرجه وبعدها نتثبّت من البراءة.

- يا سيدي اللاّزم لازم. المهمّ يخرج عزّ الدين.

- اسمعني إذن. سأرى ما نستطيع عمله. اصبر عليّ يومين وارجع لي. نتقابل يوم الاثنين. عندها نتفاهم على كلّ شيء.

- اللّه يبارك يا سيدي. ما تأمر به.

- أعطني بطاقتك.

أدخل ميلاد يده إلى جيب سترته الكاكي وأخرج محفظته الجلديّة الكبيرة. سحب منها بطاقته ومدّها إلى سي حسني وسحب رزمة من الأوراق المالية، كان قد عدّها وربطها في البيت ووضعها على المكتب قائلا:

- سيدي، هذا فوق الحساب ولا تردّه عليّ.

- قلنا نتفاهم يوم الاثنين. ردّ فلوسك إلى جيبك.

- واللّه لن يصير. ذلك من عندي هديّة وبعد عندنا حساب آخر.

- طيّب. خذ بطاقتك وملتقانا يوم الاثنين.

وقف ميلاد وهو يعيد محفظته ثمّ مدّ يده مسلّما.

- ربّي يوفقك.

- إن شاء الله تتسهّل. مع السلامة.

خرج الجماعة من باب العمارة حيث مكتب سي حسني. كانت ثمّة لوحات عديدة على واجهة الجدار الأمامي. كتب في إحداها (حسني الدلال- خبير محاسبة وتصرّف- الطّابق الثاني).

ما إن ابتعدوا عن شارع جمال عبد النّاصر حتّى ودّعهم توفيق. قال إنّ له شأنا يقضيه في وسط البلاد وعاد عبد السّلام وميلاد إلى رحبة الخيل وقد تركّز حديثهما أثناء ذلك على سي حسني وما جرى أثناء مقابلته. عبد السّلام كان يشعر بارتياح

كبير لما قدّمه من خدمة لصاحبه. وميلاد يشعر بارتياح كبير لما بعثه فيه سي حسني من أمل في خروج عزّ الدين من السّجن.

في ذلك اليوم استعاد ميلاد شيئا من حيويته القديمة، لذلك قام بشيئين انقطع عنهما منذ سجن عزّ الدين. أوّلا، لعب الورق مع عبد السّلام والشّيخ عبد الكبير وخليفة الدجّاج. منصور الحشيش وصل متأخّرا فلم يشاركهم اللّعب. بقي مع المتفرّجين. واسمعي الثانيّة. ذهب إلى عزّة.

- في القيروان؟

- لا يا امرأة. نورة في القيروان. عزّة تسكن نهج الفاسي وهو نهج صغير كان يعبره ميلاد بعربته لمّا كان يبيع الخضر.

لم يجد باب البيت مواربا كما في السّابق، فهي لم تكن تنتظر قدومه. لذلك طرق طرقا خفيفا. بعد هنيهة فتحت عزّة ورأته ولا تسأليني كم فرحت. لم تنتظر أن يجتاز العتبة. ارتمت في حضنه وشدّت على رقبته بذراعيها مقبّلة جبينه وعينيه وخدّيه. رفعها عن الأرض وأدخلها معه إلى البيت وأغلق الباب بقدمه. كانت عزّة تشمّ رائحته كأنّما تحاول أن تستعيد بها كلّ تلك الأيّام واللّيالي التي قضتها وحيدة تنتظر تلك اللّحظة. حين أنزلها من بين يديه، كانا داخل غرفتها، أبصر دموعها وقد سالت إلى نحرها. رفع يده وراح يمرّر أنامله عليها وهي واقفة أمامه لا تكلّمه ولا يكلّمها. ظلّت تنظر إليه فقط. جسد يناديه وروح تتفتّح من جديد، زهرة برّية في تربة يابسة. وبان نور من وجهها فدنا منه واضعا شفتيه على شفتيها، ضاغطا بيديه على الخصر مستأنسا بارتعاشته فيما راحت هي في خدر تتنفّس بسرعة كما لو أنّها تهرب في البيداء غزالة، لا طليقة ولا مقيّدة. لم تكن هي وقد أحسّ شيئا غريبا فيها إنّما هي الأخرى وقد تجلّت من أثر الشّوق وقد أحسّ شيئا غريبا في ثقل حركاتها وانثنائها الملائكيّ وقد أحسّ في صخب العناق نعومة عنيفة تغمره وتجعله يتداعى نحوها مستسلما لرغبة سحيقة في الغياب، وقد أحسّ سربا من اللّذائذ ينهال عليه، وراحت هي كما لم تفعل من قبل تفاجئ مسامه بحنان متصاعد بإيقاع احتفالها الصّامت، وراحت هي بجسدها المنزوع للتوّ عن غمده الأثيريّ

تبتدع لهما سعادة لم يكن بإمكانه احتواءها دفعة واحدة فانبرى يترشّفها ارتشافا ويوسّع بين الرّشفة والرّشفة كيلا تحرقه جمرتها، وراحت وهما على سطح عناقهما الباهر تمجّد انحدارها المتأجّج في هوّة الانتشاء بابتسامات شبقيّة.

كانت هي وسط سهل لا نهائيّ تقفز رافعة صدرها في الهواء تباهيا وكان هو يرقب توزّع بصره على عيون خيله الصّاهلة في إثرها.

عندما هدأت جياده وصار في وسعه سماع دقّات قلب الغزالة في حضنه، قالت له أحبّكَ. انتبه عندئذ إلى أنّها لم تخدش ظهره بأظافرها ولم تقل له بابا ولم تنكمش على نفسها كما كانت تفعل ولم تبكي، بل انسحبت من بين يديه باسمة ومشت في أرجاء الغرفة كأنّما ترقص ثمّ عادت إليه وقبّلت جبينه وهمست في أذنه بغنج:

-توحّشتك يا غالي.

فيما بعد، حين كان يهمّ بمغادرة البيت سألها عن جليلة أختها فأخبرته بأنّ الطّبيب أمر بإبقائها في المستشفى ثمّ أضافت بأنّها صارت تعيش وحيدة مذّاك فأجابها وهو يمسح شعرها:

-لست وحيدة. أنا هنا.

ظلّت كلماتها تتردّد في خاطره وهو يغادر بيتها وهو يعبر نهج الفاسي وهو يقطع شارع باب الجديد وهو يجتاز الرّحبة وهو يميل إلى ساحة عثمان داي وهو يلج نهج الفتح وهو يدفع باب بيتهم وهو يجلس أمام أمّه صالحة يحدّثها عن سي حسني وهو يقبّلها من جبينها وينسحب إلى غرفته وهو يلقي بجسده على سريره وهو يستعيد ما كان بينهما ويراها باسمة وهو ينام دون أن يغيّر ثيابه وهو يحلم وهو يفيق فجرا وهو يحضر عربته وهو يضع القدر الكبير عليها وهو يغمس قطعة الخبز الأولى في صحن الزّيت وهو يراقب قطرات الزّيت وهو ينتظر بزوغ الشّمس وهو يسمع دعوات أمّه ترافقه إلى خارج البيت وهو يدفع عربته ممسكا بالمقودين محاذرا الحفر وهو يبلغ محطّة برشلونة وهو يثبّت العجلتين بحجارة

وهو يخرج الأواني البلّورية الصّغيرة وهو يردّ تحيّة الزّبون الأوّل وهو يردّد بصوت يشبه الغناء:

" يا فتّاح يا رزّاق..."

9

الأربعاء 4 مارس، السّاعة التّاسعة وعشر دقائق.

يفتح الباب الكبير لسجن الخليفة، تدخل سيّارة " دودج" سوداء ذات نوافذ مظلمة، تتقدّم ببطء في الممشى الرّخاميّ ثمّ تتوقّف. نائب مدير السّجن و ملازمان يقفون أمام مبنى الإدارة، ينزل ضابط من السيّارة يحمل محفظة جلديّة في يده، يحيّي مستقبليه تحيّة عسكريّة فيردّون تحيّته. يصافح نائب مدير السّجن الضّابط مبتسما ثمّ يغيب الجميع داخل الإدارة. في الممرّ الدّاخلي يقف عونا أمن، يحيّيان القادمين بحركة موقّعة، لا يردّ الضابط العسكريّ التحيّة إنّما يميل برأسه قليلا ويواصل سيره إلى آخر الممرّ، يفتح نائب مدير السّجن باب مكتبه فاسحا لضيفه الدخول أوّلا ثمّ يلحق به مصحوبا بضابطيه.

السّاعة العاشرة.

يفتح حارسان من حرّاس سجن الخليفة زنزانتين ويرافقان مسجونين إلى قاعة في الطّابق الأرضي. كان هناك عون أمن يقف وراء طاولة كبيرة وخلفه تماما خزائن حديديّة مغلقة. يقدّم العون زيّين للمسجونين ويأمرهما بارتدائهما فيفعلان دون كلام. يتسلّم زيّيهما القديمين ويمدّ لهما زوجين من الأحذية وزوجين من الجوارب السّوداء.

المسجونان اللّذان يتقدّمان في الممرّ الخلفي المؤدّي إلى مبنى الإدارة هما عزّ الدين بن مصطفى زرود ورياض بن مبروك الجويني. لا يعرف أحدهما الآخر. لكنّ التّهمة واحدة. اعتقلا في نفس الأسبوع. أوقف عزّ الدين يوم الأربعاء 12 جويلية في بيتهم وأوقف رياض يوم الجمعة 14 جويلية في مسجد سيدي مخلوف. عندما يبلغان آخر الممرّ يأمرهما حارس بالوقوف. الحارس الثاني يطرق باب مكتب نائب مدير السّجن ويدخل.

بعد حين يخرج تاركا الباب مفتوحا. يأمر المسجونين بالدّخول. يقف عزّ الدين ورياض جنبا إلى جنب على يمينهما حارس وعلى يسارهما حارس قبالة نائب مدير السّجن. يترك الضّابط العسكريّ مقعده ويتّجه نحوهما سائلا:

- اسمك؟

- رياض الجويني.

- اسمك؟

- عزّ الدين زرود.

يعود الضابط العسكريّ إلى مقعده. نائب مدير السّجن يشير بيده فيخرج الحارسان المسجونين ويغلق الباب.

بمجرّد مغادرة المكتب يسحب الحارسان من حزاميهما سلسلتين ويكبّلان بهما المسجونين ويقودانهم إلى خارج الإدارة ثمّ يفتح أحدهما الباب الخلفي لسيّارة الدّودج ويساعدهما على الصّعود ويغلق الباب.

السّاعة العاشرة والنّصف.

تغادر سيّارة الدّودج سجن الخليفة. نائب مدير السّجن يشعل سيجارة ويطلب قهوة.

عزّ الدين و رياض غارقان في الصّمت. سأل عزّ الدين بنظراته رياضا عمّا يحدث. أجاب رياض بحركة من رأسه بأنّه لا يعلم.

بعد ساعة أو تزيد من الطّريق توقّفت السيارة. يفتح الباب و ينزلهما جنديّ ذو أنف معقّف يشبه منقار ديك. و يأخذهما جنديان آخران عبر ساحة كبيرة إلى مدخل مبنى ذي أقواس كثيرة. حينما بلغوه سأل رياض الجندي الذي بقي واقفا معهما فيما دفع زميله بابا و دخل :

- أين نحن؟

أجاب الجنديّ :

- في الثكنة.

- أيّ ثكنة؟

- ثكنة الجيش. اجلس.

جلس رياض على المقعد الخشبي فأضاف الجندي متّجها بكلامه إلى عزّ الدين.

- و أنت أرح فخّار ربّي . أقعد.

التفت عزّ الدين إلى رياض و سأله.

- خدمت الجيش؟

- لا.

- يبدو أنّنا سنقضي عامنا في هذه الثكنة.

- يا ليت !!! لم يأتوا بنا إلى هنا لنسوّي و ضعيتنا مع الخدمة العسكرية.

- لماذا إذن؟

- بدأت أخاف.

- الخوف من الله سبحانه و تعالى. أمّا البشر فلن يضّرونا بشيء.

- ونعم بالله.

خرج الجنديّ الثّاني. أمرهما بالوقوف و التقدّم وراءه.فنفّذا أمره.

لم يكن في الثّكنة جنود كما يفترض. وقت غداء ربّما هم في قاعة الأكل. فكّر عزّ الدّين. نزل بهما الجنديان درجا ملتوية. كانا طابقين. دورة أولى فدورة ثانية. نحن تحت الأرض قال رياض لعزّ الدّين. نعم تحت الأرض. علّق أحد الجنديين. كان الذي دخل إلى المكتب منذ حين. و أضاف. هنا البرود و العيشة، مرحبا بكما في نزل سيدي صالح، لن تطوّلا، ليلة أو ليلتين ثمّ باي باي، ودّع حبيبك و آنس هواه.

10

- يجب أن تأخذي الدّواء.

- الدّواء لا.

- كيف ستشفين إذن . خذي هذه الحبّة فقط.

- قلت لك لا.

- خذيها على خاطري. هيّا أرجوك.

- تعبت من الأدوية. خذها أنت.

- أنا عندي دوائي و هذا دواؤك. ستأخذها و إلاّ شكوتك إلى نورة.

- لا. نورة لا. هات.

- اشربي الماء الآن. بالشفاء.

- يشفيك.

- هكذا أكون مطمئّنا عليك يا عشيرتي المزيانة. الجميلة.

- من أجمل أنا أم عزّة؟

- أنا لا أعرف عزّة.

- لماذا تحكي لي عنها ليل نهارا؟

- حكاية لا غير. حكوها لي و بقيت عالقة بذهني فقلت أحكيها لك. تسلّى بها. ماذا ستفعل؟ إن كنت لا ترغبين في أن أكمل لك الحكاية فلا مانع عندي. و لكن إن لم

تسمعي ما وقع لميلاد وعزّة وعزّ الدين وصالحة و دليلة وعائشة فكأنّك لم تسمعي شيئا.

- ماذا وقع لهم؟

- أحكي أم لا؟

- احك.

- أين توقّفنا؟

- عند عزّة. تبدأ بها و تنتهي بها. الرّجال و الزّمان.

- و الله حكاية و ليست حقيقة. كيف أفسّر لك. أنا لم أعرف عزّة. ميلاد هو من عرفها.

- و أنت لم ترها و لو مرّة واحدة. هذا كلام لا يدخل رأسي. احلف برأس نورة إن كنت صادقا.

- و رأس نورة العزيزة، نوّارة عيني لم أر عزّة أبدا.

- نورة نوّارة عينك. و أنا؟

- أنت نوّارة قلبي يا دحدوحة يا غالية.

- احك لي الآن.

- قلنا ذهب ميلاد و عبد السّلام و توفيق إلى مكتب سي حسني يوم الجمعة و اتّفقوا على العودة إليه يوم الاثنين حتّى يتمكّن من القيام بآتّصالاته و درس الموضوع. هكذا أم لا؟

- هكذا.

- قلنا ميلاد أخرج من محفظته الجلدية رزمة من الأوراق المالية و أعطاها لسي حسني الذي رفضها في البداية ثمّ قبلها. هكذا أم لا؟

- هكذا .

- المبلغ الذي أعطاه ميلاد ألف دينار. عدّه ورقة ورقة هو يملك خمسة آلاف و خمسمائة دينار يخبّئها لوقت الشدّة. و ها هو وقت الشدّة قال لنفسه و هو يخرجها من خزانته.

قلنا إنّه خرج من مكتب سي حسني و هو يشعر بارتياح كبير و إنّه لعب الورق مع أصحابه ذلك اليوم و إنّه زار عزّة و لم يجد أختها جليلة و أنّه... تعرفين ما وقع بينهما... لا فائدة من إعادة الحديث و لو أنّي أريد أن أشرح لك أشياء. لكن لايهمّ. و قلنا إنّه في الغد. أي يوم السبت نهض متفائلا و يمكن أن نقول إنّه عاد إلى ما كان عليه قبل اعتقال عزّ الدّين من نشاط و أمل. بعد أن نصب عربته و أحضر ما يجب إحضاره لبيع بضاعته، و بعد أن قام بجولة صغيرة على سائقي الحافلات ليرى من يطلب صحفة درع و بعد أن تبادل حديثا قصيرا مع نور الدين صديقه، أحسن سائق في الأرض و ضواحيها كما يحلو له أن يناديه، و بعد أن ملأ سطله بالماء من المقهى رشّ نصفه في الساحة التي تحيط بعربته و ترك نصفه الآخر لغسل الأواني، و بعد أن انتصف القدر و بدأت المحطّة تمتلئ بالمسافرين و بعد أن انطفأت الفوانيس البلدية، و بعد أن اختلطت أصوات هيفاء وهبي و نانسي عجرم بأصوات الشيخ السديس و الشيخ عبد الباسط عبد الصّمد، و بعد أن انتشر التلاميذ ببدلاتهم المدرسيّة هنا و هناك و بعد أن أجبرته أشعّة الشمس الزّاحفة على اتباع ظلّ الكلتوسة فيحرّك عربته بمقادير حفظتها يداه و بعد أن فتح باب مكتبة "الغيسافوار" وظهرت الكتب في واجهتيها، و بعد أن عجّ المقهى الصغير بالزّبائن و بعد أن أخذ ماسحو الأحذية أماكنهم على الرّصيف المقابل حيث ينتصب كشك بيع الجرائد و المجلاّت و بعد أن خبت رائحة السّحلب تحت ثقل روائح أخرى قادمة من عربات تبيع الفول و الحمّص و البيض و الخبز العربي، و بعد أن أطفأ نار موقده الغازي، وبعد أن طار ظلّ الكلتوسة و بعد أن أعاد الأواني البلورية إلى مكانها ولفّها بمنشفتين حتّى لا تتكسّر عندما تتحرّك العربة، و بعد أن أغلق حقق

اللّوز المرحي و السّكر و السكنجبير و الحلوى الشامية و الزّبيب، و بعد أن نزع الحجارتين اللتين يثبتّ بهما عجلتي العربة و أعادهما إلى صندوق الصّوارد، بعد أن أفرغ الصّوارد في جيب بنطاله الكبير، بعد أن وضع كفّيه على مقودي عربته التي كانت جاهزة للعودة إلى البيت و بعد أن همّ بدفعها انتصب أمامه شرطيان بزيّ مدنيّ. قال له أحدهما:

- الله يعينك سي ميلاد.

رفع ميلاد رأسه و نظر إلى الوجهين المتشابهين أمامه و رفع كفّه اليمنى عن مكانها واضعا إيّاها على جيب بنطاله الكبير ملامسا نقوده. ظنّ في تلك اللحظة أنّهما يطلبان مالا فآمتلأت حنجرته بكلمات سوداء خرجت من أعماقه و تحضّر لإرسالها دفعة واحدة نحوهما لكنّه تراجع حين قال له الآخر:

- شرطة فرقة مقاومة الإجرام.

ازدادت الكلمات سوادا في حنجرته و منعته من التنفّس فآبتلعها. أحسّ بجروح في حلقه، جروح متعفّنة يخرج منها قيح لزج يصاحبه ألم متحوّل بلغ صدره و أحشاءه.

أردف الشرطيّ قائلا :

- نريدك أن تأتي معنا إلى المنطقة.

أجاب ميلاد و قد جفّ القيح في حنجرته متسائلا:

- خير؟

ردّ الشّرطيّ ببرود ممرّرا نظراته على العربة:

- لا تفكّر في الكرّوسة سنضعها في السيّارة، إنّها هناك.

و أشار بيده جهة مبنى البريد المحاذي للمحطة و قبل أن يعلّق ميلاد قال الشرطيّ الآخر:

- المسألة بسيطة، سويعة من زمان و تعود إلى بيتك. هيّا هات الكروسة و اتبعنا.

كان ميلاد يريد أن يسأل عن سبب استدعائه لكنّه لم يفعل استدار نحو عربته، وضع كفّيه على المقودين و لحق بهما حيث أشارا عليه. بدا و كأنّه غير معنيّ بما يحدث له. وضعوا عربته في السيّارة الميني كار الزرقاء، ركب هو بجانبها و انطلقوا باتجاه "منفلوري".

دخلت الميني كار مبنى الشرطة و سارت داخله مسافة غير قصيرة. اكتشف ميلاد أنّ ذاك المبنى الذي يبدو صغيرا للعابرين أمامه إنّما هو في الحقيقة حيّ كبير، انتشرت فيه مبان عديدة و متباعدة و توزّعت في أرجائه عشرات السّيارات المدرّعة و غير المدرّعة، بل إنّه أبصر و هو يغادر "الميني كار" ستّ حافلات كبيرة متوقّفة في نظام ورأى خلف المباني الإدارية حدائق مسيّجة و ملعبا لكرة اليد و آخر لكرة السلّة. سار مع الشرطيين مندهشا إلى أن وجد نفسه أمام شرطي آخر بدا أنّه مسؤول، فقد حيّاه مرافقاه ثمّ انسحبا بعد أن أغلقا باب المكتب الكبير. قال له المسؤول:

- اجلس سي ميلاد.

جلس ميلاد على الكرسيّ الوحيد أمام مكتب المسؤول الذي التفت إلى العون الجالس خلف آلة كاتبة و أشار له بأن يكتب.

- الاسم و اللّقب و العمر و عنوان السّكن.

- ميلاد زرود، خمسة و أربعون. أسكن في نهج الفتح عدد 13.

- ما علاقتك بالمدعوّ عزّ الدين بن مصطفى زرود؟

- خويا الصّغير. برأس والديك يا سيدي قل لي ماذا فعل؟

- أنا أسألك يا ميلاد. أعرف أنّك مستقيم. أمّا عزّ الدين لا نعلم من غرّر به. شاب مثله، متعلّم.

- و الله يا سيدي عزّ الدين مستقيم أكثر منّي. اسألوا من أحببتم سيقولون لكم إنّه خيار النّاس.

- نحن لم نقل شيئا يا سي ميلاد. أولاد الحرام لعبوا به و دفعوه إلى المهالك. تعرف أنّه يصلّي.

- نعم يصلّي و يخاف ربّي. قلت لك مستقيم أكثر منّي. أنا ربّي لم يهدني بعد. يغفر و يسامح.

- قل لي سي ميلاد. عزّ الدين لا يعمل، صحيح؟

- لا ... بعث مطالب عديدة و ربّي لم يسهّل له.

- كيف يعيش؟

- لم أفهم

- من يعطيه المصروف؟

- عزّ الدين ولدي يا سيّدي. أنا لم أقصّر معه.

- و أصحابه؟

- أصحابه؟

- لا تقل لي بأنّه بلا أصحاب.

- علمي علمك يا سيدي. عنده أصحاب بلا شكّ.

- تعرفهم؟

- النّاس كلّهم أصحابه.

- ميلاد. سمّ لي أصحابه القريبين الذين يزورونه في البيت.

- لا في البيت لا. لم أر أحدا يأتيه إلى البيت.

- كيف؟ أيعقل هذا الكلام؟ قالوا لنا عكس ما تقول.

- و الله، تلك هي الحقيقة.

- لا تحلف. أصدّقك، و لكن أريدك أن تتذكّر مع من يجلس، من هو صديقه المفضّل. قل لنا حتّى نساعده. أم أنّك لا تريد أن يعود إليكم و يقضي حياته في الحبس.

- يا سيّدي، قلت لك ما أعرفه. أنا لا أبقى في البيت و لا أعلم مع من يمشي و لا مع من يجيء، أراه مرّة أ و مرتين في اليوم في الصّباح نفطر مع بعضنا و أحيانا في اللّيل.

- اسمعني يا ميلاد. أخوك في مشكلة كبيرة، عنده علاقات بأناس فاسدين. و من الأحسن له أن تساعدنا. ما تقوله لنا هنا لن يسمعه أحد. هذه كلمة شرف منّي إليك. نحن نحبّ لك و له الخير.

كان ميلاد يستمع إلى كلام المحقّق فيما يتردّد في رأسه صوت الآلة الكاتبة التي يضرب عليها العون الصامت الذي لم يستطع رؤية عينيه فهو منكبّ على آلته يعالجها بسبّابته التي تنتقل من حرف إلى حرف بخفّة غير عابىء بما يعتمل داخل ميلاد من أحاسيس مضطربة. فكّر أن يخبر المحقّق عن رشيد فتذكّر ما قاله عزّ الدين، لا تصدّق أحدا. أنا لست إرهابيّا. أنا أحبّ بلادي أكثر منهم. عزّ الدين يفهم أكثر منّي.

- ميلاد. أين سرحت؟

- معك يا سيدي. صدّقني لا أعرف. لو كنت أعرف شيئا لقلته دون أن تسألني. أنا أحبّ أن أعرف. أريد أن أرتاح و أطمئن عليه. أقسم بالله العليّ العظيم حياتنا صارت مرّة منذ أن دخل السّجن. نحن طول عمرنا نعيش بلا مشاكل. أنتم تعرفون كلّ شيء.

- و الوالدة؟

- أمّي المسكينة تبكي ليل نهارا. هي أتعس حالا منّي. الله يكون في عونها.

- اسمع يا ميلاد. للمرّة الأخيرة أطلب منك هذا الطلب و دليلك ملك. إن كنت تعرف أحدا من أصحابه فقل لنا عن اسمه و أعدك بأنّنا سنطلق سراح عزّ الدّين فنحن نعرف أنّهم استغلّوه قل لنا اسما و نحن نتصرّف. و الله أحبّ أن أساعدكم.

ارتفع صوت الآلة الكاتبة في رأس ميلاد. كلّ نقرة من نقرات العون الصّامت ضربة مطرقة تنزل عليه بقوّة فتهدم بعضا منه. أحسّ بارتجاف عينه اليسرى و ارتعاش ركبتيه. تمنّى لو يرتمي على الآلة الكاتبة و يلقي بها على الجدار فتتهشّم.

- ماذا قلت؟

- يا سيدي و رأس قدرك قلت لك كلّ ما أعرف.

- طيّب. أعطه ليمضي على أقواله. و لا تقل لأحد أنّك جئت إلى هنا. مفهوم.

- مفهوم. و عزّ الدين يا سيدي؟

- لا تسألني عنه. الحكاية خرجت من يدي.

مرّر ميلاد إبهامه على شفّاف الحبر و بصم أسفل الصّفحة التي وضعها العون الصّامت أمامه.

كانت الآلة الكاتبة ساكنة. لكنّه ظلّ يسمع طقطقتها و هو يخرج من مكتب المحقّق و يعود إلى المينى كار الزرقاء التي أوصلته بجانب مقبرة الجلاز قبالة المستشفى العسكري حيث ساعده عونان على إنزال عربته ثمّ غابت، فيما أمسك هو بالمقودين الخشبيين و راح يشتم سلالات الشرطة و الحاكم و يحاول إسكات صوت الآلة الكاتبة الذي سكن رأسه.

11

أخذت الآلة الكاتبة مكان الدّيك داخل رأس ميلاد. لا أحد يعلم بذلك إلاّ عبد السلام عامر. قال له المحققّ لا تقل لأحد أنّك جئت إلى هنا. لكنّ ميلاد لم يستطع تحمّل طقطقة الآلة الكاتبة في رأسه. فكّر أنّه لو حكى لعبد السلام فسيذهب عنه ذاك الصّوت الذي بات تحت رحمته. تقلّب في فراشه اللّيل بطوله دون أن يغمض له جفن و حين طلعت الشمس غادر غرفته و جلس وسط الدّار مادّا ساقيه متكئا بظهره إلى الجدار.

و هو يمرّر نظره في فضاء البيت مرّت أمامه الأحداث التي قضاها في مكتب المحقق. هي لم تكن ساعة. كانت أطول من سبعة أشهر... تذّكر سؤال أخيه عزّ الدين. "هل استدعوك إلى المركز؟ هل استجوبوك؟". عزّ الدين كان يعرف أنّ ذلك سيحدث و ها قد حدث. كيف عرف. تساءل ميلاد و هو يحاول تناسي طقطقة الآلة الكاتبة.

"لا تسألني عنه، الحكاية خرجت من يدي" في يد من صارت الحكاية؟"

كان ميلاد يشعر بارتياح رغم كلّ شيء، ارتياح داخلي لأنّه لم يخبر المحققّ عن رشيد. لو أخبرته أكانت الحكاية ستبقى في يده؟

تذّكر العون الصّامت الذي كان يجلس خلف الآلة الكاتبة و يضرب أزرارها بسبّابة يده اليمنى. إنّه يشبه عزّ الدّين. يشبهه في شكل فمه و ذقنه. هو لم ير عينيه.

تذّكر منصور الحشيش. جاءه ذات يوم في مقهى الحجّاج و فتح جريدته على صفحة من صفحاتها و قال له هذا إعلان عن فتح امتحان للدّخول إلى الشرطة، يصلح لعزّ الدين قل له يشارك فيه، سيصبح ضابطا إن نجح.

تذكّر عزّ الدين و هو يمدّ إليه الجريدة التي أعطاها له الحشيش. تريدني أن أدخل إلى الشرطة و أربح دعاء الشرّ. البطالة أحسن من العمل مع الحاكم. لم يعارضه يومها. عز الدين يعرف ما يصلح به. هو المتعلّم و المتنوّر.

تذكّر حارس السجن الذي قال له إنّ عزّ الدّين يدخّن أكثر منه. ما لي لم أره مرّة واحدة يمسك سيجارة؟ "السّجن يعلّم الفساد كلّه... طقطقة الآلة الكاتبة تزداد قوّة و هو يجهد نفسه لتذكّر أشياء لا يعرفها. يريد أن يفهم ما يحدث.

تذكّر يوم غضب من منصور الحشيش لأنّه تحدّث عن الإرهاب. لكن لا عزّ الدّين لم يفعل شيئا. المحقّق قال له غرّروا به. "من غرّر به؟" أيكون متورّطا فعلا؟ و عزّ الدّين العاقل. ذاك الذي لا يصلّي صلاة إلاّ في وقتها. عزّ الدّين الذي كان كثيرا ما يسمعه يقرأ القرآن في غرفته كيف يمكن أن يضرّ أحدا؟

تذكّر صوته قادما من مربّعه الصّغير في قاعة سجن الخليفة. لماذا تغيّر صوته بتلك الطّريقة؟ و لماذا لم يخبره بما يجري و طلب منه أن يقابل رشيدا في مقهى السّلامة بالزّهروني؟ ماذا لو أخبره المحقق عنه هل كان يساعد أخاه أم كان سيزيد الطين بلّة.

رغم قرقعة الآلة الكاتبة داخل رأسه كان ميلاد و هو في جلسته تلك يشعر بارتياح غريب . سيكون يومه حافلا. سيقابل عبد السّلام عامر و يحكي له ما وقع في المركز عسى أن يتخلّص من تلك الأصوات ثمّ سيذهب إلى الزّهروني عسى أن يقابل رشيدا.

- ميلاد... يا ميلاد.

- نعم يا أمّي.

- ما بك اسم الله على ولدي.

أخذت الصالحة رأس ميلاد بين يديها و راحت تفرك شعره بأناملها و هو يتلذّذ. أعادت سؤالها.

- ماذا تفعل هنا؟

- لا شيء. لم أنم جيّدا البارحة. طار عنّي النّوم.

- من ينام يا كبدي؟

- ربّي يعدّيها على خير.

- سأعدّ لك الفطائر. عجنتها البارحة. أعرف أنّك تحبّها.

- ربّي يخلّيك.

فيما بعد حين كان يحكي لعبد السّلام عامر في مقهى الحجّاج أخبره أنّ فطائر الصالحة لا تظاهيها أيّ فطائر و أنّها تذكّره دائما بأبيه الذي كان لا يتناول في الصباح إلاّ فطيرتها ببيضة مسلوقة و رأس بصل.

- اسمعني. أمر التّحقيق لا يجب أن يخيفك.

- كيف لا يخيفني؟

- سجّلوا كلامي بالكلمة. قلت لك عن العون الذي يكتب على الماكينة. طق...طق...طق. شيء يدمّر الأعصاب.

- و الله شيء عادي. إن شاء الله سي حسني ينصح و يخرج عزّ الدّين و ترتاح من ها المشكلة. الصّبر.

- إذا كان على الصّبر يهون. أمّا خوفي كلّه على عزّ الدّين. من الجامعة إلى السّجن. و الله يحسن الخاتمة.

- لا تخف عليه رجل ابن رجل. تعرف يا ميلاد الدّنيا تغيّرت أنت لا تشاهد الأخبار. ما يقع في العالم يشيّب الرّأس. حروبات و قتل و مقتول و النّاس تأكل في بعضها و مصائب. كلّ نهار يخرج مرض جديد يفني آلاف البشر. قل الله يلطف بنا.

- من فعلنا يا سي عبد السّلام.

- مازلنا سنرى العجب.

- قال لي الحكاية خرجت من يده.

- يقول ما يقول لا يأخذ الرّوح إلاّ خالقها. ما هو إلاّ عبد مأمور.

- تعرف؟ المركز بلاد كاملة. إدارات و بيوت و جنائن و فيه ملاعب... تراه من الخارج فلا يخطر في بالك أبدا أنّ فيه كلّ ذلك الشيء.

- البلاد امتلأت بالشّرطة بغير فائدة. لو أرسلوهم إل العراق ليحاربوا لكان أحسن.

- يحكمون بأحكامهم. أنا أدفع لهم و إمّا أجوع.

- هذه حكاية معروفة. ثمّة أمور أخرى أدهى و أمّر. الأحسن الواحد يسكت.

- و نموت من القهر؟

- ماذا سنفعل، أنا و أنت؟

- لا شيء. ماذا يقول الميّت أمام غاسله؟ المهمّ بالنّسبة إليّ هو أن يخرج عزّ الدّين من الحبس. تعبنا يا أخي عبد السّلام، سبحان الله. كلّ شخص عنده طاقة محدودة. هدّونا الله يهدّهم.

- اشرب قهوتك، بردت، يفرّجها ربّي.

- من فمك إلى باب السّماء.

روى ميلاد حكاية التّحقيق. كان واثقا بأنّه سيتخلّص من قرقعة الآلة الكاتبة التي سكنت رأسه بمجرّد أن يفرغ جعبته أمام عبد السّلام عامر. وفعلا ما إن تفارقا متواعدين على اللّقاء في الغد للذهاب إلى سي حسني حتّى أحسّ أنّ الدّيك قد عاد إلى مكانه و أنّ الآلة الكاتبة قد طارت من رأسه حاملة معها وجه الشرطيّ الصّامت. الذي كان يشبه أخاه عزّ الدّين.

- و عزّة؟

- ما بها عزّة؟

- لماذا لم تحك لي عنها اليوم؟

- تعرفين يا عزيزي، عزّة مسكينة. حكايتها تمزّق القلوب رويت لك قليلا منها. لم أحدّثك عن موت أمّها. ليست أمّها التي ولدتها بل خالتها هي التي ربّتها. و الله يلزمني أعواما لأروي لك عن سيدي ابن آدم و ما يقاسيه. تلك حكاية أخرى. أمّا دعيني أحدّثك عن شيء آخر.

- الآن؟

- إن شئت.

- لا، أحسّ بآلام في ظهري. كأنّ فيه خناجر مغروسة أعطني دوائي.

- دواؤك؟ ألم تتناوليه منذ حين؟

- لا...

- أعطيتك إياه بيديّ هاتين و ها هو كأس الماء شاهد.

- ذاك كأسك أنت، أعطني الدّواء.

- يا امرأة. تريدني أن أحلف لك. "و الله شربت دواءك"

- لا لم أشرب.

- شربت.

- لم أشرب

- امسكي ها هي علبة الدّواء كلّها. أنا لست مسؤولا عمّا سيحدث لك.

- هات.

12

- قلت لك إنّ ميلاد ترك عبد السّلام عامر أمام مقهى الحجّاج بعد أن حكى له ما وقع له في التحقيق و قد أحسّ بالراحة.

- ماذا فعل بعد ذلك؟

- اتّجه نحو شارع باب بنات حيث أوقف سيارة تاكسي. كان سائقها مسّنا. قال له ميلاد :

- الزّهروني عيّش بابا.

لم يجبه السّائق، ظلّ منكبّا على المقود ينظر من خلف نظّارتيه إلى الطّريق. شكّ ميلاد في ان يكون السّائق قد سمعه فأعاد عليه ما قاله منذ حين:

- الزّهروني

لم يبد السّائق أيّ اهتمام بكلامه و حافظ على ذات الهيأة فخطر ببال ميلاد ان يستفزّه حتّى يسمع صوته فقال له :

- قلت لك الزّهروني. تعرفه؟

عندها التفت نحوه السّائق و مقطّعا كلماته بشكل يوحي بأنّه فهم قصد ميلاد أجاب :

- حتّى إذ كنت لا أعرف الزّهروني فالسيارة تعرفه.

عاد إلى سالف صمته منحنيا على المقود ناظرا إلى الطّريق أمامه، فيما ابتسم ميلاد في سرّه فلم يكن ينتظر إجابة كتلك و حين وصل إلى الزّهروني دفع للسّائق أجرته و قصد مقهى السّلامة.

جلس على منضدة قريبة من الباب. لم يكن ثمّة زبائن كثيرون. ثلاثة أو أربعة متباعدين. جاءه النّادل بعد لحظات مصبّحا :

- صباح الخير. ماذا أعطيك يا خويّا؟

- عندكم فيلتر؟

- لا و الله. يا حسرة على قهوة الفيلتر.

- هات ما تشاء.

- إكسبريس خفيفة؟

- لا يهمّ.

ما أن ابتعد النّادل حتّى اقترب من ميلاد شاب طويل أسمر و جلس قبالته قائلا:

- صاح الخير عمّ ميلاد. أنا رشيد.

ردّ ميلاد:

- رشيد. صباح الخير، أتيت لأراك. عزّ الدين قال لي أن آتيك إلى هنا.

- أعرف آسمعني الآن. آشرب قهوتك و آتبعني، سأسبقك.

و دون أن يسمع ردّ ميلاد. نهض رشيد و آبتعد عنه بآتجاه شارع النخيل.

كان ميلاد يحسّ بقلبه يخفق بسرعة و بآرتعاشة تسري في كامل جسده.

جاءه النّادل بالإكسبريس، شكره و دفع له ثمنها و دون أن يضع سكّرا تناول منها رشفة. ثمّ خرج. عندما صار في الشارع أحسّ بمرارتها فسارع بتمرير لسانه داخل فمه متلمّضا.

كان رشيد على الرّصيف المقابل. رفع ميلاد عينيه فأبصره و راح يتبعه. شق الطّريق، مشى خطوات قليلة ثمّ دخل نهجا ضيّقا (نهج الشهيد حمزة الجبالي) قاده إلى ساحة صغيرة، لف منها إلى نهج أضيق (نهج الشهيد عمّار حليلة).

توقّف رشيد و دفع بابا حديديّا أزرق، كان عليه أن يحني قامته ليدخل و كذلك فعل ميلاد.

عندما صار الرّجلان داخل البيت، أحكم رشيد إغلاق الباب ثمّ التفت إلى ميلاد قائلا:

- سامحني يا عمّ ميلاد أتعبتك معي.

ثمّ احتضنه مضيفا :

-دعني أسلّم عليك كما يجب.

احتضنه ميلاد بدوره وهو يقول :

- لا تعتذر، فهمت. الحمد لله أنّي لقيتك. جئت مرّتين قبل اليوم.

- لم أكن في تونس.

- إن شاء الله خير؟

- كلّ ما يأتي به الله خير. تفضّل.

كان البيت عبارة عن غرفتين متجاورتين وحمّام صغير. متجاورتين، لكلّ غرفة نافذة تفتح على ساحة مربّعة لا يزيد عرضها عن أربعة أمتار بسطت أرضها بجلّيز أبيض ذي حراف بُنيّة. فتح رشيدٌ باب الغرفة الأولى بمفتاح صغير جذبه من جيب سرواله داعيا ميلاد إلى الدخول.

- تفضل عمّ ميلاد.

مقعدان عريضان من الخشب و بينهما طاولة قصيرة عليها كتاب قرآن و في الركن الأيمن قبالة النّافذة خزانة ملابس ببابين (كان ذلك كلّ أثاث الغرفة). مرّر ميلاد نظره في المكان و هو يأخذ مكانه في آخر المقعد واضعا مرفقه على جنبته المصقولة. جلس رشيد قبالته تماما و همّ بالكلام فسبقه ميلاد قائلا :

- احك لي كلّ شيء. أحبّ أن أعرف الحقيقة. ماذا فعل عزّ الدّين ليرموا به في حبس الخليفة؟

لم يردّ رشيد مباشرة، ترك فاصلا من الصّمت ناظرا في عيني ضيفه ثمّ قال :

- لم يفعل شيئا يغضب الله.

- إذن فعل ما يغضب الحاكم؟ لا تخف عنّي. قال لي عزّ الدين إنّك تعرف كلّ شيء.

وضع رشيد منكبيه على ركبتيه و مال نحو ميلاد و قال :

- عمّ ميلاد، صلّ على النّبيء.

- عليه الصّلاة والسّلام.

- هل قلت شيئا يضرّ النّاس، بالعكس. كلّ ما نقوم به هو طاعة الله و دعوة النّاس إلى الحقّ. هل نحن مخطئون؟

- اسمعني يا رشيد يرحم والديك. عزّ الدّين في حبس السيّاسة. هذا يعني أنّه قام بما لا يرضاه الحاكم. خذني على قدر عقلي و قل لي ببساطة ماذا فعل لا أكثر و لا أقلّ.

- عزّ الدّين مثله مثل عشرات من أصحابنا اعتقلوا ظلما لأنّهم يصلّون في الجامع.

- لماذا اعتقلوه. كلّ النّاس يصلّون في الجامع. لماذا هو بالذّات؟

- لأنّه يصلّي بحقيقة.

- قل لي شيئا آخر أفهمه و يدخل المخ. كيف يفرّق الحاكم بين من يصلّي بحقيقة و من لا يصلّي بحقيقة؟

- عمّ ميلاد. أنت تعرف عزّ الدّين. هو قال لي بأنّك أنت من ربّيته. هل جاءك من يشكو منه يوما؟

- لا... أبدا.

- ها أنت تقولها بلسانك فلا تصدّق ما تقوله الشرطة الفاسدة.

- يا سيدي أعرف أنّها فاسدة و أكثر من فاسدة. هذا لا يهمّني. ما يهمّني هو أخي عزّ الدّين. لماذا أمسكوه؟ أنت لم ترهم وهم يهجمون عليه كالكلاب. حملوه من نومه. لو رأيته في السّجن لما عرفته و تقول لي لأنّه يصلّي في الجامع.

- هذه هي الحقيقة يا عمّ ميلاد.نحن لا دخل لنا في السيّاسة بتاتا. و كلّ أصحابنا اعتقلوا بلا تهم. قل لهم أعطوني تهمة واحدة صحيحة...

- و الحلّ يا رشيد يا ولدي؟

-الحلّ عند الله سبحانه و تعالى. سيهدينا إليه إن شاء. نحن نعيش في وقت ظلم و معصية نسأله أن ينجيّنا من ظلم الظّالمين و يكتب لنا الجنّة يوم الدين.

قال ميلاد دون أن يشعر: - أجمعين.

فأضاف رشيد: -اطمئّن يا عمّ ميلاد. لا تخف على عزّ الدّين هو أخونا كما هو أخوك و نحن نعرف كيف نحافظ عليه أينما كان. و سنجازيه على تضحيته و حبسه و نحن لا نضيع إخواننا أبدا فلا تيأس مهما قالوا لك.

قال رشيد كلامه ذاك ثمّ وقف و أضاف معتذرا

- اسمح لي يا عمّ ميلاد، لحظات و أعود إليك.

حين صار ميلاد وحيدا في الغرفة. أعادت ذاكرته كلّ كلمة قالها رشيد. بحث عمّا به يعود إلى أمّه. لم يجد شيئا ذا بال. كلام رشيد كلّه مواساة لا غير لماذا أرسله عزّ الدّين إذن؟

فكّر أن يسأله عندما يعود "من أنتم؟" قال نحن مرّات عديدة، و قال هو أخونا. و مضت به ذاكرته إلى المحقّق. "سأله من أصحابه" و هو أجاب بأنّه لا يعرفهم. و لكن من هم؟

لم يطل انتظاره فقد عاد رشيد حاملا كيسا بلاستيكيّا و مدّه إليه قائلا :

- هذا من إخواننا.

سأل ميلاد بعد أن أمسك بالكيس و تحسّس ما به بأصابعه.

-ما هذا؟

- شيء من رزق الله.

أجاب رشيد دون أن يجلس في مكانه. وقف ميلاد ثمّ أدخل كفه في الكيس و أخرج رزمة من الأوراق المالية من فئة العشرين دينارا تكاد تكون جديدة كلّها و قال بشيء من الحدّة :

-الحمد لله. لم آت لأطلب مالا منك.

ردّ رشيد و هو يعيد الرزمة إلى ميلاد.

- أستغفر الله يا عمّ ميلاد. هذا المال من حقّ عزّ الدّين فهو دين علينا. فإن رفضته غضب عزّ الدّين منك ومنّا. بجاه ربّي لا تردّه و إن احتجتم أيّ شيء فلا تتردّد نحن إخوة في الله.

كان مبلغا كبيرا، بما يكفي ليفهم ميلاد أنّ "نحن" التي يتحدّث بها رشيد "نحن" قويّة. لذلك لم يضف شيئا، اكتفى بالقول:

- بارك الله فيكم.

قال رشيد مطمئنا:

- لا تقلق على عزّ الدّين.

ثمّ مدّ له ورقة و أضاف.

- هذا رقم هاتفي. كلّمني في أي وقت تحتاجني.

غادر ميلاد المنزل كانت تعتمل داخله مشاعر شتّى عجز عن تقبّلهاو أفكار مشوّشة فشل في ترتيبها.

عاد إلى بيتهم دون أن يعرف بالضبط هل هدّأت مقابلة رشيد قلقه أم أنّها ضاعفته.

- و عزّة؟

- من جاء على سيرة عزّة؟

- أين هي؟

- في بيت أختها، سأحكي لك عنها مرّة أخرى.

- احك عنها الآن.

- لا. الآن سأذهب للمحطّة، سأنتظر نورة.

- نورة؟ من أين خرجت نورة هذه؟

- من بطنك.

- لن تخرج من البيت حتّى تخبرني من تكون نورة.

- يا آمرأة. نورة ابنتك. تصل بعد قليل من القيروان.

- نورة؟؟؟ كلّ يوم أسمع اسما جديدا.

-لا إله إلاّ الله. أنا خارج... لا تلمسني نباتاتها.

13

قضّى ميلاد اللّيلة الفاصلة بين يوم السّبت و يوم الأحد متقلّبا في فراشه. استحال النّوم عليه رغم رغبته الشّديدة في الاسترخاء، بل في الغياب. و تجمهرت في ذهنه آلاف المشاهد و الأحداث حتّى كأنّما كانت حياته تعصر عصرا بين عينيه قطرة قطرة. و قطرة قطرة ترشّف ذكرياته التي اختزلها في ثلاثة غائبين، والده مصطفى و أخيه عزّ الدّين و عزّة. لفظ اسمها مرّات متلذّذا نغمته في سمعه، و إذ أحسّ ببعض سعادةٍ وهو يستذكرها لام نفسه و صبّ تفكيره في عزّ الدّين. أين عساه يكون و كيف حاله و هل سيراه قريبا و ماذا سيفعل بالمال الذي أخذه من رشيدٍ و بأيّ كلام سيصبّر أمّه و أختيه و هل سيفي حسني الدلاّل بوعده و ماذا لو تواصل حبسه. ثمّ عادت عزّة. رآها تحصنه و تمسك رأسه بين كفّيها و سمع صوتها يواسيه وأحسّ بدفئها يسري إلى روحه فتستضيء بوجودها لترى بعض التفاؤل "أحبّك...أحبّك..." قالها بصوت مسموع كأنّه يختبر قدرته على النّطق.

حين استفاقت صالحة اتّجهت إلى غرفة ميلاد و طرقت الباب بكفّها منادية:

-بابا ميلاد...ميلاد...ميلاد.

فأجابها:

-نعم يا أمّي صباح الخير.

أعدّت صالحة الفطور و التحق بها ابنها. لم ينطق أيّ منهما بكلمة لزمن غير قصير ثمّ همست:

-ميلاد...ميلاد.

رفع ميلاد رأسه مجيبا:

-نعم يا أمّي؟

-لا أريد أن أثقل عليك. قل لي برحمة أبيك ماذا فعل عزّ الدّين؟

نظر إليها ميلاد تاركا اللقمة دون أن يقول شيئا فأضافت الصّالحة:

-أخوك مع جماعة السّياسة؟

انتفض ميلاد مجيبا:

-أيّ سياسة يا أمّي؟ من قال لك هذا الكلام؟ نحن لا نتدخّل في السياسة . عزّ الدّين لم يفعل شيئا . غلطة. سيخرج بحول الله. سترين، و قريبا.

-لا تخفي عنّي الحقيقة يا ولدي. ما وقع وقع لكني أحبّ أن أفهم. أختك قالت عزّ الدّين خوانجي.

- شنوّة؟

- هي قالت.

- خوانجي. آش معناها؟

-قالت لي إنّه مع جماعة المسلمين. هكذا قالت. زوجها قال لها.

-وماذا قال لها أيضا؟

-قال الخوانجية ضدّ الحاكم وهو لا يحبّهم.

- كلام كلام...

- يا ميلاد يا ولدي قدّر علينا ربّي. هو يفرّج كربنا.

همهم ميلاد وهو يضع اللقمة في فمه واستحضر صورة رشيد وهو يطمئنه على مصير عزّ الدّين. أحسّ ببعض ارتياح لم يدر سببه. أهو كلام أمّه وتقبّلها الامر

بذاك الشكل أم كلام رشيد الذي وجد له في تلك اللحظة معنى واضحا. و كما لو أنّه يطلق آهة قبول بالأمر الواقع ردّ قائلا:

-إلّي يعمل ربّي مبروك.

فهمت الصّالحة كلمات ولدها على أنّها رغبة في إنهاء الحديث عن عزّ الدّين و لأنّها تدرك جيّدا أنّه يشعر في قرار نفسه بذنب ما تجاه أخيه، أضافت:

- ربّي لا يضيع عبده.

سكتت صالحة بعد قولها ذاك و سكت ميلاد. هي رأفة به وهو خوفا من الدّخول في التفاصيل التي صار يعرفها منذ زيارته لعزّ الدّين في السّجن واستجوابه في مركز منفلوري و كلام رشيد في دار الزهروني و تردّد حسني الدلّال في الإجابة.

14

"خارج نطاقنا" عبارة لم يسمعها حسني الدلاّل من سنين، حتّى أنّه تفاجأ حين سمعها من فاتح و هو يسأله عن قضيّة عزّ الدّين زرود. مجيبا إيّاه بنبرة حاسمة.

- أغلق الملف. الموضوع خارج نطاقنا.

- نهائيّا؟

- نهائيّا و لا تعد إليه.

- سياسة؟

- أخطر. قلت لك أغلق الملف.

- أغلقناه.

سي فاتح لا يعيد الكلمة مرّتين. يتكلّم بنصف فمه الأيمن فيما يظلّ النّصف الأيسر مغلقا. بقيّة باقية من شلل نصفي أصابه منذ سنوات. كلّ كلامه يبدأ بصفير مسموع يساعده على تحريك نصفي شفتيه السّليمين. إصابته ضاعفت من حدّة طبعه و سرعة غضبه. حسني الدّلال يعرف عنه هذا و أكثر لذلك لا يجادله في رأي أبدا و يعمل ما في وسعه لإرضائه. فهو وليّ نعمته قبل كلّ شيء. كلّ مليم يملكه حسني الدلاّل كان بفضل فاتح البليسي. قبل سنوات، لم يكن حسني سوى موظف في إدارة فرعية للمحاسبة يتقاضى مرتّبا بسيطا تصرّ زوجته هالة على أن تتسلّمه كاملا فتضيفه إلى مرتّبها نصف البسيط الذي تأخذه من صاحبة قاعة الحلاقة التي تعمل عندها منذ سنتين و تتولّى هي بنفسها تقسيمه على مصاريف البيت. يكون نصيب حسني خمسين دينارا قد تنقص أحيانا و لكنّها لا تزيد.

هالة تعلّمت الحلاقة بعد زواجها، شجّعتها إحدى صديقاتها على متابعة دروس مسائية. و الحقّ أنّها كانت موهوبة وقد استطاعت بفضل جمالها و لباقة لسانها أن

ترضي مادام جودة التي لا يعجبها العجب عادة و أن تكسب ودّ حريفاتها و أغلبهن من الطبقة الثريّة.

أحبّ حسني هالة حبّا عاديّا يكفي فقط للزّواجِ و فتحِ بيتٍ. كانت تسكن الشقة المقابلة التي اكتراها عند مجيئه إلى العاصمة. في البداية أعجب بأختها الكبرى ثمّ استطاعت هالة أن تستميله إليها، تصبّح عليه و تمسّي رافعة الكلفة بينهما "صباح الخير حسني، مساء الخير حسني".

أعجبه نطقها لآسمه فطلب يدها من أبيها فلم يرفض و لم يشترط عليه شيئا. "المهمّ أن تسعدا". صارت هالة تعيش في البيت المقابل لبيتهم. في الحقيقة صار البيتان بيتا واحدا. فلا يغلق إلاّ ليلا.

لم يكن لطموح هالة حدّ. استطاعت بعد عامين توفير مبلغ مكّنها من تحويل غرفة جلوس بيتها إلى قاعة حلاقة و اشترت أدواتها اللاّزمة و بدأت العمل لحسابها.

رغم ما سبّبه الانقلاب الذي طرأ على البيت لم ينزعج حسني بل لم يهتمّ فهو يقضي اليوم بكامله في العمل. صار أكثر حرّية و صار مرتّبه له وحده، لا يعطي منه شيئا لزوجته. حسّن ذلك من هندامه. اشترى بدلات جديدة بل إنّه كثيرا ما كان يطلب من هالة أن تعطيه مالا فلا تبخل عليه. المهمّ أن يبقى بعيدا عن البيت و لا يسأل.

حسني لا يسأل عن شيء. لهالة زبونات تذهب إليهنّ في بيوتهنّ، أحيانا تعود في ساعة متأخّرة. حسني لا يسأل. فتحت محلا جديدا في وسط البلاد و شغّلت معها فتاتين و عاد البيت إلى ما كان عليه و حسني لا يسأل. سافرت إلى تركيا و سوريا لتجلب فساتين الأفراح، حسني لا يسأل. صار لها شريك في تجارتها يوصلها إلى البيت بسيّارته. و أحيانا يسافر معها لشراء الملابس للدكّان الذي فتحاه معا. حسني لا يسأل و يوما أخذته هالة معها إلى بيت سي فاتح البلسي، قالت له إنّها تعرف زوجته. لم يسأل. طلبه سي فاتح للعمل معه فقبل دون أن يسأل. ترك عمله في دائرة المحاسبات الفرعية و أصبح مسؤولا ماليا عن معمل مشروبات غازية

فمديرا ماليا له و لم يسال. اشترى له سي فاتح سيارته الأولى. اشترت زوجته منزلا فاخرا في حي النصر و أثّثته و لم تأخذ من البيت القديم غير بعض الملابس و تركته على حاله لعائلتها و حسني لم يسأل. صار سي فاتح ضيفهم الدّائم في البيت الجديد. و لم يسأل. أمسى هو الضّيف في بيته و لم يسأل. رصيده في البنك يتضاعف يوما بعد يوم. الجميع يناديه سي حسني. فهم أنّ سي فاتح أعلى و أقوى ممّا يمكنه بلوغه. أمره بفتح مكتب للمحاسبة و اختار موقعه و عيّن له سكريتيرة تقوم بكلّ ما يطلبه منها و لم يسأل. شرح له فيما بعد كيف يقوم بالعمل و قد أفلح حسني في وظيفته الجديدة دون أن يعلم كيف يأتيه النّاس حاملين قضاياهم فيكتفي بسماعهم و تسجيل الطّلب بإيجاز شديد و يبلغ سي فاتح به. يخبره سي فاتح بالمبلغ المطلوب فيزيد عليه هو ما يراه مناسبا و هكذا. عمل صغير و ربح وفير ينال منه نسبة يجدها آخر كلّ شهر في رصيده و لا يسأل.

و يوم سأل حسني الدلاّل هالة زوجته عن علاقتها بسي فاتح حدجته بنظرة ظلّ أيّاما يحاول التخلّص من مخلفاتها ثمّ جاءه سي فاتح البليسي إلى مكتبه. كانت المرّة الأولى التي يزوره فيها كان ذلك قبل أن يتعرّض لتلك النّوبة التي ذهبت بنصفه و قال له دون أن يطلق صفيره و هو يمدّ له شيكا.

- هذا لك.

ألقى حسني الدلاّل نظرة سريعة على الشيك ذي المائة ألف و سأل سي فاتح سؤاله الأوّل منذ أن عرفه :

- ما هذا؟

فأجابه.

- تطلّق هالة أعطيك مثله.

طوى حسني الشيك و وضعه في جيب قميصه و لم يضف كلمة واحدة.

عاد كلّ شيء إلى ما كان عليه كأنّ شيئا لم يحدث لكنّه لم يعد إلى البيت مذّاك. لعلّه كان ينتظر تلك النتيجة. كأنّه كان يحبّ أن يحدث ما حدث غير أنّه لم ينم ليلتها. قصد مطعم الميموزا. طلب سمكا مشويّا و زجاجة نبيذ أبيض ثمّ طلب واحدة أخرى. شرب منها كأسا واحدة. دفع الحساب و غادر المكان. كان وجه هالة يظهر أمامه. ثمّ يغيب و بين ظهور و ظهور يمرّ في خاطره شريط أحداث يلخصّ حياته معها. لم يكن يبحث عن فهم ما يحدث.

صعد في سيّارته و آنطلق بآتجاه ضاحية قرطاج أميركار. توقّف عند الكرنيش الصّغير. أطفأ الأضواء و آتكأ في مقعده قبالة البحر يستمع إلى صوته الهائج. لم يكن يفكّر. كان يتلذّذ وضعه الجديد.

عندما تمّت تراتيب الطّلاق، أرسلت إليه هالة حقيبتين بها ملابسه و أوفى سي فاتح بوعده.

بعد ستّة أشهر أصيب فاتح البليسي بجلطة أولى لم تؤثّر في سير العمل... عاد كما كان. تذكّر حسني الدّلال تلك الفترة حينما سمعه يقول له "خارج نطاقنا".

مرّت سنين اليوم، وها هو يسمعها من جديد. سيكون عليه أن يخبر ميلاد بأنّه لا يستطيع فعل شيء لإطلاق سراح أخيه و لأنّه لم يتعوّد مثل تلك المواقف راح يفكّر في الطّريقة المثلى ليقوم بذلك. أعدّ إجابات عديدة و لكنّه لم يلجأ إلى أيّ واحدة منها. دخل عليه ميلاد مكتبه مسلّما و سائلا عن الأخبار لم يجد في ذهنه غير بضعة كلمات ألقاها إليه وكأنّه يعتذر عن قولها:

- ما زلنا يا سي ميلاد نحاول. يلزمنا بعض الوقت.

نظر إليه ميلاد نظرة مختلفة تماما عن تلك النظرات التي نظر إليه بها في المرّة الأولى. كانت نظرة شاردة بعض الشيء وممزوجة باليأس وقد أحسّ حسني الدلاّل بثقلها وقرأ من خلالها الكلام الذي حبسه محدّثه فبان تردّده أكثر حين مدّ يده إلى مظروف في درج مكتبه وأعطاه لميلاد قائلا:

- هذه أموالك. دعها عندك حتّى نجد حلاّ.

عارض ميلاد بشدّة، لكنّ حسني الدلاّل أصّر بشكل قاطع، قائلا:

- المسألة ليست في المال. ثق أنّي سأبذل كلّ ما في وسعي لأطلق سراح أخيك. امنحني بعض الوقت فحسب.

لم يضف ميلاد كلمة واحدة . صافح حسني الدلّال وهو ينظر إليه كاتما توسّلاته التي ظهرت في قسمات وجهه لونا بين الزرقة والحمرة وارتعاشا متقطّعا تسرّب من كفّه إلى حسني الذي رانت عليه حالة من الضّيق لم يتعوّدها ولم يستطع تحديد أسبابها. ميلاد زرود ليس أكثر من زبون . علاقة عابرة عليها أن تنتهي بهذا الشكل أو بغيره. تعلّم حسني خلال سنوات عمله أن يترك عاطفته مختزنة في صندوق مغلق صار من فرط إهماله بعيدا عنه في ناحية قصيّة من كيانه كأنّما هو شيء لا يخصّه. لكنّه انتبه فجأة وهو يتابع خروج ميلاد إلى ظهور ذاك الصندوق أمامه على مكتبه الخشبيّ الجميل وقد انفتح مغلقه وراحت تصّاعد منه أصوات أشبه بالصّراخ وخيالات ذكّرته بأشخاص عرفهم، جاؤوا كلّهم إلى مكتبه خلال سنيّ عمله فيه وشيئا فشيئا أخذت تلك الاصوات تتحوّل إلى أنين متقطّع وبدأت تلك الخيالات تتشكّل في هيآت بشرية واضحةالملامح حتّى خيّل إليه أنّها تتحوّل تدريجيّا إلى أناس حقيقيين يتجمهرون حوله ويمدّون أيديهم نحوه للفتك به، بل إنّه أحسّ تلك الأيدي تضغط على رقبته وتخنقه فلا يستطيع منها فكاكا. ولأنّه لم يختبر ذاك الإحساس، شقّ عليه حاله وانتابته رغبة في الصّياح قاومها بأن هبّ للخروج من المكتب يتدافع بعضه ليسبق بعضه.

15

- ابنتك نورة ستتزوّج... صحيح؟

- من قال لك؟

- سمعتها البارحة تحدّثك عنه.

- عمّن؟

- عن الشاب الذي يعمل معها في القيروان.

- أنا لم أسمعها.

-كيف لم تسمعيها جاءتك إلى هنا. بقيت معك أكثر من ساعة. أنا كنت في السّقيفة وسمعت كلّ شيء.

- تتلصّص علينا؟

- أبدا. خرجت لأدخّن سيجارة. كان صوتها يبلغ باب الدّخول فسمعتها، تتحدّث عنه كما تتحدّث عبلة عن عنتر.

- من تكون عبلة؟

- ابنة عم عنتر.

- ابن من هو؟

- ابن شدّاد.

- قل لي اسم أمّه.

- زبيبة.

- زبيبة؟

- أي نعم زبيبة.

- هذه لا تسكن حيّنا. أعرف نساء الحيّ جميعهنّ.

- عن أيّ حيّ تتحدّثين. عنتر وعبلة ماتا منذ مئات السنين.

- لماذا تتحدّث عنهما إذن؟

- عبلة كانت تحبّ عنتر وابنتك تحبّ ...هل قالت لك عن اسمه؟

- قالت.

- ما اسمه؟

- لن أقول لك عن اسمه.

- عيب يا امرأة أنا أبوها. قولي لي اسمه.

- لا.

- وإذا أخبرتك عن سرّ لا تعرفه غير عزّة؟

- وميلاد؟

- حتّى ميلاد لا يعرفه.

- احك.

- قولي اسمه أوّلا.

- لا. احك أوّلا.

حدّثتك عن جليلة أخت عزّة وعن مرضها. قلت لك إنّ الطبيب أمر ببقائها في مستشفى عزيزة عثمانة. صارت عزّة تزورها كلّ يوم. تقف بجانبها ممسكة باصابعها وهي ساكنة لا شيء فيها يوحي بالحياة غير حركات صدرها النّحيل، يعلو وينخفض في إيقاع رتيب، إيقاع قطرات السيروم التي تنظر إليها عزّة وهي تسقط داخل الانبوب الشفّاف باتّجاه الإبرة المغروسة في معصم اختها.

كم تساءلت عن هذا السّائل الذي قيل لها إنّه يكفي ليتغذّى جسد جليلة فلا حاجة إلى أن تأتيها بطعام لن تتناوله.

لا تسأليني عن حالها وهي تترك الأصابع وحيدة في عمق تلك الغرفة الباردة وتغادر وفي صدرها تلك الآهة المكتومة التي تحوّلت مع الأيّام إلى غصّة تمنعها من التنفّس فلا تتخلّص منها إلاّ إذا ما انفجرت من عينيها تلك الدموع السّاخنة فتجفّفها بكمّ ثوبها وهي تنزل تلك الدّرجات السبع التي تقودها إلى الممرّ المؤدّي إلى باب المستشفى حيث تقف هنيهة كما لو أنّها تتخلّص من صورة أختها قبل مغادرة المكان. تلك الصّورة التي ما إن تغيب عزّة في زحمة نهج جامع الزيتونة حتّى تنطبع في الحجارة الصّفراء، تلك الحجارة التي اختارها البنّاؤون منذ مئات السنين لتكون سور المستشفى.

لا تسأليني كيف تعود عزّة إلى البيت ولا كيف تدخل غرفة أختها ولا كيف تتهالك على فراشها ولا كيف تتشمّم رائحتها ولا كيف تتوسّل إلى الله في وحدتها ليخفّف عنها.

وذات ليلة، استجاب الله لدعاء عزّة فخمد النّفس الرّتيب داخل صدر جليلة النّحيل وتحرّرت روحها من قيدها وانطلقت مخترقة الغرفة الباردة وسور المستشفى واقتلعت تلك الصّورة المنطبعة في حجارته ثمّ اختفت.

-لم أفهم شيئا من كلامك.

- ما الذي لم تفهميه؟

- قلت لي لا تسأليني...لا تسأليني...ماذا وقع لعزّة؟

- أختها جليلة...

- ما بها؟

- ماتت.

- الله يرحمها...ارتاحت المسكينة.

- نعم جليلة ارتاحت. الله وحده يعلم كم تعذّبت. ولكن عزّة لا. كيف أفسّر لك ذلك؟ عزّة لا تعتبر جليلة مجرّد أخت بل كلّ ما يربطها بالحياة. قلت لك إنّها جاءت إلى بيتها بعد الحادث وظلّت معها تعتني بها وترعاها دون أن تشكو تعبا أو سأما. هي لا تفكّر في ذلك أصلا. إنّه قضاء وقدر. وهل يملك أحد رفض القدر؟ ماتت جليلة ففقدت دورها. قال لها أخوها ابراهيم لم يعد لك ما تعملين في العاصمة، ستعودين معنا إلى الدّار. فلم تجبه. دفنوا جليلة في مقبرة الجلاّز. جنازة صغيرة وانتهى الأمر.

- وميلاد؟

- لم يسمع ميلاد بموتها إلاّ بعد أسبوع أو أكثر. من سيخبره؟

- عزّة.

- عزّة لا تعرف طريق بيته، وهو لم يكن يذهب إلى العمل. سألت عنه فقالوا لها إنّه لم يظهر من يومين. وانشغلت هي بمن جاؤوا من الزرارعة قريتها، ستّة أنفار. لو رأيتهم يأكلون ويضحكون كأنّهم في عرس. عزّة لا تتكلّم. تنظر إليهم وتشتمهم في سرّها. حين قال لها أخوها بأنّ عليها العودة معهم إلى الزرارعة لم تجبه. كانت تضع أمامهم قصعة الكسكسي. فكّرت في ميلاد. كانت ترغب في أن يضمّها إلى صدره لتبكي كما تريد أن تبكي وتفرغ همّ الدّنيا عنده. في الغد أعاد أخوها كلامه فأجابته بأنّ هناك أمورا عليها أن تصفّيها ثمّ تلحق بهم. هو كان ينتظر تلك

الإجابةمنها، ولكنّه كان ينتظر أن تطلب مساعدته أيضا، فلم تفعل. المهم بالنّسبة إليه كان البيت، بيت جليلة. أمّا عزّة فلم تكن تعني له شيئا، كما كانت دائما. هو مستعدّ لبيعها وقبض ثمنها.

- لماذا؟

- قصّة طويلة سأحكيها لك ذات يوم.

- عندها إخوة غيره؟

- لا.إخوة آخر زمان. الله يسترنا. لو كنت مكانها لطردته من البيت.

- الدّنيا فسدت. لكنّه لن ينال شيئا. الطمّاع يبيت ساريا.

- لم تخبرني عن السرّ الذي لا تعرفه غير عزّة.

- وأنت لم تخبريني عن اسمه.

- قل أنت أوّلا.

- عزّة حامل.

- لا تقل هذا الكلام.

- والله العظيم.

- من ميلاد؟

- طبعا من ميلاد. عزّة لم تعرف رجلا غيره. ها قد أخبرتك بالسرّ دورك الآن. ما اسمه؟

- من؟

- الرّجل الذي ستتزوّجه ابنتك.

- ابنتي؟ ليست لي بنات.

- هيّا يا آمرأة تكلّمي وإلاّ لن تسمعي منّي كلمة واحدة بعد اليوم.

- دع كلامك عندك.

- طيّب. ولكن لا تفرحي كثيرا، حمل عزّة ليس هو السرّ الذي أريد أن أقوله. ميلاد عرف ذلك ولكن سرّ عزّة شيء آخر.

-ما هو إذن؟

- لن أخبرك به سأدع كلامي عندي.

16

قضّى عزّ الدّين ورياض ليلتهما في ثكنة سيدي صالح دون أن يغمض لهما جفن. تسامرا إلى مطلع الفجر، بعد أن صلّيا ركعات باكية للّه. كان المكان صامتا،

لم يسمعا فيه صدى حركة أو كلاما، كانا ساكنيه الوحيدين. هكذا خيّل إليهما.جاءهما جنديّ بطعام ما كادا يتذوّقاه حتّى عافاه وركناه جانبا.

في الثامنة انطفأ الفانوس المتدلّي من السّقف وانحسر ضوء الممرّ في بهرة لم تكن تكفي إلاّ ليبصر كلّ منهما هامة صاحبه داخل تلك الغرفة ذات الرّائحة البحريّة التي لا يمكن أن تكون أعدّت ليسجن داخلها أيّ كان بنوافذها الجميلة وبهذه المدفأة العتيقة التي انغرست في الجدار الأيمن منها حيث انتشرت على جنباتها قطع من الرّخام رفيع القيمة وامتدّت مصطبة تحلّي حواشيها نقوش كولونيالية مستوحاة من شجر السّابان ذي الأوراق المخروطية الطويلة. وأمّا الباب الحديديّ السّميك الذي يصدر عند دفعه أزيزا قويّا فلا يشبه في شيء أبواب زنزانات سجن الخليفة أو سجن الحمراء الذي عرفه رياض قبل ترحيله، إضافة إلى تلك الجدران العالية التي دقّت بها مسامير معقّفة كانت بلا شكّ تستعمل لتعليق صور أو لوحات تشكيلية. لا يمكن أن تكون تلك الغرفة قد صمّمت لتكون سجنا. ذاك ما فكّر فيه عزّ الدّين ورياض دون أن يعبّر عنه أحدهما للآخر. ما كان يشغلهما أكثر من أيّ شيء آخر هو لماذا هما دون غيرهم. لماذا رحّلا من سجنهما؟ لم يعطهم أحد تفسيرا ولم يتجرّآ هما على السؤال. قال رياض إنّ في الأمر سرّا مريبا وإنّ المعاملة التي لقياها منذ مغادرتهما ليست عاديّة فلم يسمعا كلمات نابية ولم يشتم أيّ من مرافقيهم عورات أمّيهما ولم تفاجئ أحدهما صفعة طائشة.

غير بعيد عنهما، كان حسني الدلاّل ما يزال مستيقظا، جالسا في أريكة وسط غرفة الجلوس ينظر في الفراغ. لم يكن يومه عاديّا. رغم أنّه يعاني من مدّة شعورا بالوحدة وربّما بالخوف إلاّ أنّه لم يسمح له بالتظخّم إلى حدّ يجعله يفقد هدوءه أو يطرح على نفسه أسئلة لن يجد لها إجابات بل ستقوده إلى أسئلة أخرى تفضي به إلى أسئلة أخرى تفضي به إلى أسئلة أخرى حتّى ترتفع حرارته وتبلغ أعلى رأسه،

عندها يتحرّك جسمه دون إرادة منه داخل البيت، يمشي خطوات مرتبكة بلا معنى ثمّ يعود إلى حضن الأريكة كما ليزيل الإحساس بالتّصاغر الذي يستبدّ به ولا يعرف كيف يحدّده.

منزل حسني الدلاّل قريب من البحر. أحيانا، حين يأتي الشتاء، تبلغ الأمواج سوره الخارجيّ وتظلّ ترميه بقطرات الماء الملح. تلك هي اللّحظات السّعيدة التي يعيشها متسمّرا وراء النافذة التي تطلّ على الشاطئ متدثرا ببرنسه القديم الذي نجح في الاحتفاظ به رغم محاولات زوجته المتكرّرة لإتلافه. كانت تقول له إنّه يجلب التّعاسة ولكنّه احتفظ به ولم يكن بإمكانه المحافظة عليها هي...لو كان الفصل شتاء لكان وضع البرنس الصّوفيّ الثقيل على كتفيه وراح يراقب ثورة الأمواج وطيرانها العشوائيّ في الهواء ثمّ سقوطها على أطراف السّور. لكنّ الشتاء ما يزال بعيدا وحسني المنغرس في حضن الأريكة لا يفكّر في البحر. إنّه يطرح الأسئلة ولا يجيب عنها بل لا يجرؤ حتّى على محاولة الإجابة.

بعد سنوات، سيتذكّر ليلته تلك بندم، إنّما ستكون لديه يومها أجوبة عديدة لم يبحث عنها بنفسه إنّما جاءته هكذا، بمجرّد النظر إلى وجوه النّاس، تلك العادة التي سيدمنها قبل أن يقتنع نهائيّا أنّ عليه أن يغادر سرداب الوهم الذي كان يحيا داخله دون أن يحيا فعلا.

لكن قبل ذلك، سيطرح سؤالا أخيرا ثمّ ينام منحشرا في الأريكة، ولن يفيق إلاّ عند ظهر الغد غير قادر على الحركة من أثر آلام في عموده الفقريّ وفي مفاصله.

كانت رائحة البحر تملأ البيت وهو أمر لم يسترع انتباهه فقد تعوّد تلك الرّائحة.ولكن رياضا وعزّ الدّين انتبها إلى ذلك وعلّقا عليه" نحن قريبان من البحر ". وأضاف رياض سائلا:

- أين؟

- الله أعلم. بلادنا كلّها بحر.

- سرنا أكثر من ساعة في تلك السيّارة التي حملتنا إلى هنا.

- قد نكون في بنزرت. من يدري.

- ربّما. أنا لا يهمّني أن أعرف.

- لماذا نقلونا نحن دون غيرنا من إخواننا.

- ذاك ما يشغل بالي أيضا.

- الله يفرّجها. لا تحزن...

- ونعم بالله.

17

مذ طلّق حسني الدلاّل زوجته لم يزر أهله. شيء ما انكسر داخله فصار يكتفي بمكالمات هاتفيّة متباعدة. يطمئنّ على أمّه ويسألها عن أخيه حسن الذي تزوّج ولم يحضر عرسه. أرسل إليه ما يكفي لمصاريف الحفل و لتجهيز البيت و لكنّه لم يره عريسا.

شيء ما انكسر فصار شخصا آخر غير ذاك الذي كان. لا يتعلّق الأمر بالثروة التي جمعها. إنّما هو حدث داخليّ. ربّما يعود إلى نشأته الأولى وسط عائلته. أو ربّما يعود إلى إحساس بالفشل تضخّم لديه فغدا سدّا عاليا يمنعه من مواجهة أهله بعد أن شاع بينهم أنّ زوجته هي التي طلّقته.

الحقيقة هي أنّ هالة، قبل ان تبدأ في سلسلة التغيّرات، كانت تسعد بمرافقته إلى منزلهم القديم حيث تعيش أيّاما، مدى إجازة، وهي لا تنفكّ تقول لأمّه " والله الحياة هنا أحلى من العاصمة ".

ثمّ حين فتحت صالون الحلاقة في شقّتها، انقلبت تماما. فلم يخطر ببالها أن تسأل عن عائلة زوجها مرّة واحدة، ناهيك عن التفكير في زيارتهم. و قد كانت قبل ذلك تخاصم حسني ليأخذها معه. حتّى أنّها ذهبت بمفردها ذات صيف.

صحيح أنّها خلال زياراتها تلك، تعود محمّلة بالزّيت والتوابل والسّميد العربي وأحيانا بكيس من البسيسة التي تحبّ تناولها في الصّباح مخيّرة إيّاها على أيّ أكل آخر. ولكن ذلك كان أمرا طبيعيّا بالنّسبة إلى حسني. وهي تعشق السّباحة في البحر. وذاك أيضا لم يعره حسني انتباها وقد كان يقول بأنّ بحر قريته أحسن ألف مرّة من بحار تونس مجمّعة فهي لم تعد صالحة للسّباحة بما غزاها من خلق وما انتشر فيها من ظواهر غريبة. كان ذلك قبل أن تعصف ريح الأيّام بهما وقبل أن يستفيق على حقيقة تلك الفتاة التي أحبّ نطقها لاسمه بذلك الدّلع وبتلك الرقّة التي كانت تخفي امرأة أخرى لا تفكّر إلاّ في مصلحتها وحسب وتستعمل كلّ ما تملك

من أجل المال ولا شيء غيره. وقد تمكّنت في زمن قصير من بلوغ ما كانت تحلم به.

يعلم حسني كلّ ذلك ولكنّه لم يسأل نفسه كيف حصل ما حصل. كان مأخوذا بما صارت إليه حياته هو أيضا. فقد ارتفع على دائرة الوظيفة العموميّة التي لم تمنحه سوى الحاجة والتّعب وأصبح من أصحاب الملايين. فلماذا يسأل نفسه؟ ولقد اقتنع ألاّ شيء أهمّ من المال في الدّنيا وأنّ عليه أن يغنم أكثر ما يمكنه منه مهما كانت السّبل إليه. لذلك أغمض عينيه عن كلّ ما كانت تقوم به زوجته بل إنّه كان ينسى أحيانا أنّه متزوّج، خاصّة في الأيّام التي كانت تسافر خلالها لجلب السّلع من تركيا وسوريا والمغرب وليبيا. ثمّ كانت تغيب عن البيت ادّعاء بأنّ لها أعمالا هنا وهناك. إلى أن دخل فاتح البليسي حياتهما.

و يوم سألها عن علاقتها به، أسقطت آخر ما كان يربطه بها، وانتهى الأمر بأن اشتراها البليسي منه ودفع له ثمنها مضاعفا. هكذا فكّر حين أتمّ معه الصّفقة وكان راضيا تماما وحمد الله أنه لم يرزق منها أطفالا.

في البداية فكّر أن يتزوّج ثانية وأن يبدأ من جديد، لكنّه ما إن يفكّر في الأمر قليلا حتّى يتراجع عمّا فكّر فيه. ليس لأنّه لم يصادف من ترضيه من النّساء وليس لأنّه يخاف أن يتكرّر معه الأمر وليس لأنّ النّساء اللّواتي عرفهنّ بعدها لم يجحدن عنه شيئا بل لأنّه لم يستطع طرح السّؤال المناسب الذي تكون إجابته الزّواج. ظلّ يتنقّل من امرأة إلى أخرى دون أن يشعر بميل حقيقيّ إلى أيّ منهنّ. كانت لديه قاعدة لم يحد عنها وهي ألاّ تدوم علاقته بامرأة أكثر من شهرين اثنين ثمّ يتخلّص منها بشكل من الأشكال. حتّى أماني طالبة الأنجليزية التي لم يعرف أشهى منها في الفراش ولا أرقّ، تلك التي يرتعش شوقا حين يذكرها، تلك التي لو طلبت نصف ما يملك لأعطاها دون تردّد لم تنجح في أن تجعله يتجاوز قاعدته الذّهبية. شهران لا غير ثمّ تأتي تجربة أخرى ولكلّ تجربة ثمن يحدّده هو منذ البداية وفق مقاييس خاصّة به. الجمال مقياس ثابت ولكنّه ليس الأوّل، فحسني يشترط في المرأة التي يختار أن تكون قليلة الكلام ولا تسأل عن شيء وأن تعلم منذ البداية أنّ علاقتهما علاقة جنس لا غير وبناء عليه لم يكن يزعجه أن تبالغ إحداهنّ في طلباتها بل الحقّ أنّه كان

يغدق عليهنّ بالمال بما يفاجئهنّ أحيانا ويسعى إلى تحقيق رغباتهنّ المعلنة والمخفيّة. ذاك أمر يناسبه وقد جعله خبيرا في تقدير أثمان النّساء.

أماني صاحبة أجمل ابتسامة على وجه الأرض وضواحيها كما كان يقول لأحد أصدقائه، لم تطلب شيئا، لكنّه كان يغرقها بالهدايا. ويوم انقضى الشهران فتح لها حسابا بنكيّا وأعطاها رقمه بعد أن أودع فيه مبلغا كافيا لشراء سيّارة شعبية. لقد سمع منها ذات ليلة أنّها تحلم بسياقة سيارة.

هي تستحقّ أكثر من ذلك.كان يقول في نفسه وقد قرّر إنهاء علاقته بها. والواقع أنّ أماني التي لم تتخطّى سنتها العشرين إلاّ ببضعة أشهر لم تكن فاتنة الجمال فحسب بل كانت تمنحه أثناء ممارسة الحبّ، أعني ممارسة الجنس ما لم تمنحه له أيّ امرأة أخرى. فما إن يختلي بها حتّى تتحوّل إلى أنثى مدرّبة على إعطاء اللذة فلا يتركها إلاّ وقد اشتعلت روحه بلهيبها وارتفعت به عن الأرض ارتفاعا...

أماني التي ما تزال عباراتها الأنجليزية تتردّد في مسامعه وتثير فيه جميع غرائزه لم يشفع لها ما تملكه. وكمن سبقنها ولحقنها من النّساء أوقف علاقته بها عند تمام الشّهرين.

لم يكن الأمر سهلا عليه وكم همّ بالاتّصال بها لكنّ طبيعة المحاسب الذي يلتزم بقواعد مظبوطة تغلّبت عليه في النّهاية وانطلق حسني إلى تجربة جديدة، إلى امرأة جديدة...

18

- حلّومة...

- .....

- حلّومة...

- إمممم

- حلّومتي

- ها نعم.

- غنّي لي.

- آش قلت؟

- قلت لك غنّي لي.

- يا حسرة على الغناء.

- صوت واحد يكفيني. هيّا غنّي.

- يكفي يا راجل. ما عاد في خاطري غناء ولا والو...هدّني المرض.

- ما زالت البركة يا عشيرتي. برحمة أمّك الجازية.

- هذي قالت لهم اسكتوا. انس ها الحكاية.

- بجاه ربّي غنّي لي ...

- باهي يا سيدي على خاطر جاه ربّي

"مرّاتْ نَزْهَى و مرّاتْ نتكدّرْ

و مرّاتْ تِصْفَى الدّنيَا و مرّاتْ تِتْغدّرْ

و مرّاتْ يا حُبّي نِتسَلْطِنْ وتفارقْ رُوحِي اللّيعاتْ"

- الله الله عليك يا صليحة...

- صليحة آشكون يلحق صوتها؟ من فراق غزالي وأمّ الحسن...

- صوتك أحلى ألف مرّة نبصملك بالعشرة. أنت أمّ الحسن يا غزالتي...

- غزالتك يا حسرة على هاك الزمان. الأيام طارت بنا. رمشة عين وها إنّي رهينة في تركينة...

- بربّي اسكت. ها الكلام يوجعني. أحلف يمينا أنّك عندي أحلى النّساء. ما زلت كما عرفتك من خمسين سنة.

- احلف...

- و ربّي العزيز يا حليمة...

- زيد احلف...

- وراسك ورحمة بحرية أمّي...

- بحرية ماتت؟

- الله يرحمها. عندها أكثر من عشرين سنة.

- وجددت عليّ؟

- اسغفر الله. خرجت من هذا البيت وبكيت عليها أيّاما وكنّا نزور قبرها كلّ خميس معا..

- لا تقل هذا الكلام. البارحة رأيتها.

- في المنام؟

- لا في اليقظة وحكت لي على عمايلك.

- الله يهديك.

- أنت الله يهديك وتسمع كلام أمّك.

- الله يرحمها و ينعّمها. ماتت راضية عليّ.

- راضية عليك؟ الليلة نسألها وسنرى.

- لا إله إلاّ الله.

- خايف منها؟

- لا أنا خايف منك.

- إنت زوفري وكلب وعاصي والديك.

- وأنت بومة مهبولة.

- مهبولة... أنا للاّك يا هامل يا خامج يا...أمّي بحرية يا أمّي بحرية...

- أقعد نوّح فيها. حياة كلبة...

19

بدا الشرطيّ الذي فتح غرفة حبس عزّ الدّين و رياض ودودا بعض الشّيء وهو يطلب منهما الاستعداد لمغادرة المكان، في حين وقف زميله قبالتهما متجهّما. تبادل الشّابّان نظرات تملؤها الرّيبة والقلق و امتثلا لما طلب منهما. وإذ اشتدّ ثقل الصّمت حولهما نطق رياض سائلا:

- إلى أين؟

أجاب الشرطيّ باقتضاب بأنّه لا يدري وتراجع إلى خارج الغرفة واقفا بجانب زميله. نظر إليهما رياض وأعاد سؤاله مضيفا:

- هل سنخرج من السّجن؟

- لا أعلم. ربّما.

لم يكن ثمّة في ملامح الشرطيين ما يوحي بشيء مخصوص، وجهان لا يمكن قراءة ما يخفيان. ولم يكن رياض و عزّ الدّين ينتظران شيئا منهما فقد تعوّدا مثل هذه الإجابات الصمّاء وتعوّدا تنفيذ ما يطلب منهما دون إصرار على معرفة الأسباب. خرجا جنبا إلى جنب وقد اتّخذ الشرطيان وضعية المرافقة و هما يمسكان بساعديهما. صعدا الطّابقين كما نزلاهما بذات الحيرة وبذات الخوف وبذات الأسئلة.

لم تكن الساعة قد جاوزت السابعة صباحا بعدُ. كان نصف السّاحة التي بلغوها مضاء بنور شمس فاترة الهمّة. لم تكن تلك شمس ميلاد. شمسه أجمل و أكثر إصرارا على العمل و أقدر على إثارة الأمل. كانت شمسا أخرى متكاسلة و غير منشغلة بما يحدث تحتها. التفت عزّ الدّين إلى الأقواس المنتصبة بجانبيهما في تناسق بديع و جمال لا يمكن أن يتطابق و ما استعمل من أجله هذا البناء ثمّ إلى وجه رياض. لم تكن هندسة الأقواس ولا فتنة المكان لتشغلانه آنذاك. كان يبحث عن إجابة تطفئ ما اشتعل داخله من حرائق و تهدئ من هيجان هواجسه.

في الجهة المقابلة من السّاحة، أبصر عزّ الدّين ثلاثة شبّان آخرين في مثل سنّهما وقد أحاط بهم جنود بزيّ النّمر الأسود، تلك التسميّة التي قفزت إلى ذهنه. فرقة خاصّة من البوليس. فرقة المهمّات الصّعبة والمواجهات الخطيرة و مقاومة الأعمال الإجراميّة. هذا ما يعرفه عزّالدّين. أمّا رياض فيعلم أكثر منه في شؤون الشرطة و رتبها و أزيائها و اختصاصاتها و أسلحتها. أحد أصدقائه من سلك البوليس. درس معه ثلاث سنوات في الجامعة ثمّ التحق بالسّلك. ظلاّ متلازمين رغم افتراق طريقيهما. هو من كان يطلعه على تلك الأمور. كان أكثر من صديق. إنّه واحد من الشباب الذين التزموا بحبّ الله و الجهاد في سبيل نصرة الإسلام على الدّيار التّونسيّة. لكنّه يخفي ذلك عن الجميع حتّى على عائلته. لا أحد يثق في أحد. قد يشي بك أقرب النّاس إليك في هذا البلد. نحن نعيش في ثكنة كبيرة... هذا ما كان يقوله له موصيا إيّاه بالتكتّم و ملازمة الحذر. سينصرنا المولى سبحانه وتعالى كما نصر نبيّنا عليه الصّلاة والسّلام. و كان بارعا في تقمّص دور الشّرطيّ المثاليّ كما يحبّون. حتّى أنّه نال ترقيّة لانضباطه و تفانيه في العمل.

لم يكن رياض، في تلك اللّحظات يفكّر في زيّ أولئك الرّجال ولا في اختصاصهم ولا في صديقه ذاك، لقد حدس أنّ أمرا خطيرا يحضّر لهم وفكّر بأنّ جلبهم إلى هذا المكان لا يمكن إلاّ أن يكون من أجل هدف أخطر من مجرّد عزلهم أو تغيير سجنهم. ولأنّه يعلم أنّ من إخوانه من قتلوا في السّجون ومنهم من دفن في الصّحراء فلا أثر لهم أو لقبورهم، فلقد راح يرسم لنفسه ولعزّ الدّين أشكالا من الموت، و يلطّف من عذابها بملاقاة الله ودخول جنّته الموعودة. وارتسمت على وجهه ابتسامة فيها كثير من الارتياح، إنّما تمازجها بهتة و شرود. حين أبصر عزّ الدّين تلك الابتسامة حاول فهمها غير أنّه لم يستطع و أعاد النّظر إلى صديقه دون جدوى. كانت قد نقشت في وجهه نقشا كأنّما هي فيه أصلا.

مرّة ثانية وجد رياض وعزّ الدّين نفسيهما في تلك السيّارة السّوداء الكبيرة التّي أوصلتهما إلى هذا المكان و أبصرا ذاك الجنديّ ذي الأنف المعقّف داخلها ولكنّهما كانا مصحوبين هذه المرّة بالشبّان الثلاثة الذين أبصراهما منذ حين وقد ارتدوا نفس الزيّ الذي يرتديانه. و انطلقت السيّارة بعد أن وضعت في أيديهم السّلاسل و أحكم

غلق بابها الخلفيّ.لم يوجّه لهما أحد كلمة واحدة، بل إنّهما لم يسمعا أيّا من الجنود أو من رجال الشرطة ينطق ببنت شفة.

تمّ كلّ شيء في الصّمت. السيّارة ذاتها رغم حجمها الكبير، لم يصدر محرّكها صوتا. تقدّمت ببطء أوّلا ثمّ ارتفعت سرعتها شيئا فشيئا. وبقدر ما كانت تبتعد كانت نظرات الشبّان تزداد قلقا و ارتيابا. لعلّ عزّ الدّين و رياض قد خمّنا آنذاك أنّ جميع من كانوا في السيّارة عدا الشّرطيّ ذي الأنف المعقّف و زميله العملاق، ربّما، لا يعرفون وجهتهم التي بلغوها بعد أقلّ من نصف ساعة، ليجدوا أنفسهم حين فتح باب السيّارة من الخارج، قبالة مصعد فولاذي قادهم إلى داخل طائرة خضراء و هناك تولّى جنود آخرون أخذهم إلى مقاعدهم دون أن يفكّوا قيودهم. كانت لحظات منزوعة عن غمدها الأزليّ و لأجل ذلك أحسّ عزّ الدّين و رياض كما أحسّ الشبّان الثلاثة بدوار غريب يلفّهم دفعة واحدة و يمنعهم من السيطرة على أفكارهم التي تزعزعت فلا عقل ولا حكمة ولا منطق في هذا الذي يحدث لهم.

بعد أقلّ من ربع ساعة أقلعت الطّائرة الخضراء مقتلعة معها تلك الابتسامة التي كانت قد ارتسمت على وجه رياض ولم تترك فيه سوى البهتة والشرود مثله كمثل رفاقه الأربعة.

20

- محجوب... يا محجوب

- انتظري ها أنا قادم.

- محجوب..

- ها...

- تعال إلى هنا، عندي ما أقوله لك.

- خير إن شاء الله؟

- اقعد ...

- عندي خدمة. قولي ما عندك.

- لن أفتح فمي حتّى تقعد.

- قعدنا. احكي

- نورة بنتي...

- ما بها نورة؟

- تحب تعرّس...

- أعرف.

- في هذا الصّيف.

- لا؟

- هي قالت لي. اتّفقت مع رمزي خطيبها.

- متى خطبها سي رمزي هذا حتّى يحدّد العرس؟

- خطبها هي. ما دخلنا نحن؟

- كيف تقولين ما دخلنا؟ البنت يخطبونها من عائلتها.

- بنت من؟

- كلّ بنت تخطب من عائلتها. هذه هي الأصول.

- أصول؟

- افهميني يرحم والديك. أنا خطبتك من أخيك ثمّ زارتكم أمّي بحريّة مع خالتي و زوجة عمّي الله يرحمهنّ كلهّن وخطبنك من عائلتك، من أمّك وريدة. تذكرين.

- كأنّها البارحة. أنا لم أقبل في البداية. ثمّ قالوا لي إنّك تبيع الملابس فقبلت.

- يعني أنّك أحببت ملابسي وليس أنا؟ اعترفي يا حليمة يا بنت الجبالي.

- لا. أحببتك أنت يا حجوبة يا غالي.

- كيف أحببتني وأنت لم تريني من قبل؟

- لا. رأيتك في الحوش داخلا مع النّوري أخي الله يرحمه. كنت ترتدي برنسا أبيض فأعجبتني.

- أعجبك البرنس الأبيض.

- أعجبني قدّك وضحكتك...

- المهمّ أنّي ذهبت وخطبتك. تقولين لي ما دخلنا. عندي بنت واحدة. عليه أن يخطبها منّي. انتظرت عمرا كاملا من أجل هذه اللّحظة. قل لها لن أسامحها أبدا إذا تزوّجت بلا خطبة. أنا لن أرفض. هي التي ستعيش معه وليس أنا. لكنّ عليه أن يأتي ويقابلني ويطلب يدها. هذا آخر كلام عندي. انتظرتها عشرين سنة تلك المخلوقة حتّى جاءت إلى الدّنيا. لم أترك عزّاما ولا كتّابا إلاّ وذهبت إليه. صرفت عليها دمّ قلبي وتأتي اليوم لتتزوّج دون خطبة. والله يا حليمة الموت أهون عليّ من ذلك. قل لها هذا الكلام حين تعود. أنا لن أخاطبها.

- اهدأ يا وِدّي. اهدأ. من قال إنّه لن يخطبها؟

- أنت قلت.

- قلت لك العرس في الصّيف. هذا ما قلت. أمّا الخطبة فلم تحدّثني نورة عنها.

- قل لها ما قلته لك ودليلها ملك. أنا أبحث عن مصلحتها. ماذا سيقولون عنها. هي ليست رخيصة. أبوها لم يمت بعد. وأنا أقيم لها عرسا يليق بها ويرفع رأسها. هل قلت العيب يا حليمة؟

- لا. ربّي يطوّل عمرك و ترى أولادها.

- تصوّري، عزّة التي لا أب لها ولا أمّ و عائلتها في آخر الدّنيا، و تعلمين مشاكلها معهم، اشترطت على ميلاد أن يخطبها.

- عزّة؟

- إيه عزّة. أنا لم أقل لك إنّ ميلاد لم يصدّق حين أعلمته بأنّها حبلى. طار من الفرحة. احتضنها بكلّ قوّاه وراح يقبّل وجهها و رأسها. أمّه، هي الأخرى فرحت عندما أخبرها أنّه يريد أن يتزوّج وأنّه وجد امرأة تلائمه و زغردت رغم لوعتها على عزّ الدّين. واسمعي ماذا قالت له.

- ماذا قالت؟

- قالت له: أخطبها لولدي غدا.

- و هو ماذا قال؟.

- هو شرح لها . حدّثها عن ظروفها وعن أختها التي ماتت وعن صبرها عليها وعن كلّ شيء.

- كلّ شيء؟

- نعم كلّ شيء. ماذا سيخفي عنها؟

- حملها؟

- لا طبعا. تلك حكاية لا يمكن له أن يخبرها بها. المهمّ أنّها فرحت له وطلبت منه أن يحدّد موعدا لخطبتها.

- وماذا فعل ميلاد؟

- ميلاد تحوّل إلى إنسان آخر. لم يتصوّر أنّه سيتزوّج ذات يوم. نسي هذا الموضوع. عاش من أجل عائلته. أمّا وقد جاءته الفرصة فإنّه صمّم على الذّهاب إلى النّهاية.

- أيّة نهاية؟

- أعني قرّر الزّواج رغم كلّ شيء. ذهب إلى عزّة واتّفق معها على كلّ شيء.

- و خطبها؟

- نعم خطبها.

- من أبيها؟

- لا. أبوها مات. قلت لك ذلك. نسيت؟

- لا. لم أنس...مات. ممّن خطبها إذن؟

- من أخيها. ذهب إلى الزّرارعة وسأل عنه.

- و وافق؟

- اسمعي. رحّب به كثيرا وأكرمه، حتّى أنّ ميلاد استغرب. عزّة حكت له ما فعله بها. أمّا هو فكان يخطّط لشيء آخر. وجده جالسا مع رجال آخرين أمام دكّان صغير يلعب الورق. الرّجل الذي أوصل ميلاد من محطّة السيّارات إلى الدكّان سلّم عليهم وقال موجّها كلامه لحسين. هذا اسم أخيها. عندك ضيوف من تونس.

وقف أخوها متفاجئا وسلّم على ميلاد الذي اعتذر من الجماعة عن مقاطعتهم. رمى حسين الأوراق من يده ومدّ يده لضيفه مسلّما، وحين عرف سبب زيارته ودّع أصحابه واصطحب ميلاد إلى بيته. ولا تسألي عن مدى الترحاب الذي بذله له. كان الوقت عصرا يومها. أعدّت زوجته كسكسا بلحم الخروف.

- وخطبها؟

- خطبها.

- ووافق أخوها؟

- قلت لك فرح به فرحا لا يوصف و قرأ معه الفاتحة.

- هذا هو أخوها الذي جاءها إلى هنا؟

- هو نفسه. ليس لها غيره.

- سبحان الله مغيّر الاحوال.

- لا يا حليمة لم يتغيّر. افهمي الهدرة. له هدف آخر. إذا تزوّجت عزّة أين ستسكن؟

- في دار زوجها.

- و يحصل هو على دار جليلة.

- آه الواطي.

- لذلك أسعدته خطبة عزّة ورحّب بميلاد كلّ ذلك الترحاب. وأقام لها عرسا في بيته. هو بيت العائلة. أصبح بيته مُذْ مات أبوه. لا أطيل عليك. تزوّج ميلاد عزّة رغم كلّ شيء. لكم ودّت العائلة لو كان عزّ الدّين حاضرا معهم. لكن ماذا تقول في مشيئة الله. حتّى أنّه لم يسمع بالزّواج. حاول ميلاد زيارته لكنّه لم يستطع. كلّ مرّة يقولون له شيئا جديدا.

المهمّ هو أنّ ميلاد تزوّج عزّة ورآها في ليلتها الاولى معه كما لم يرها من قبل. كانت سعيدة. بل إنّها شعرت للمرّة الأولى بالسعادة. نظر إليها وهي جالسة في طرف السّرير مرتديّة فستان الفرح الأبيض وعلى رأسها تاج صغير يشدّ خصلات شعرها إلى الأعلى فيما تضغط كفّها على منديل ورديّ صغير. كانت رائحتها تملأ الغرفة وتمنحه إحساسا بالانتشاء. هي أيضا نظرت إليه وكأنّها تكتشف ملامحه وبدا له أنّها تبتسم. اقترب منها ورفع يدها إلى شفتيه وقبّلها. عندها انفجرت بالبكاء. بقيت الابتسامة معلّقة بينها وبينه، إنّما عيناها المكحّلتان أطلقتا دمعا أسود راح ميلاد يمسحه بأنامله ثمّ ضمّها إليه وبكى هو أيضا.

- ميلاد بكى؟

- نعم. تذكّر أخاه عزّالدين مقيّد اليدين والدّم ينزف من رقبته و رجال الشرطة يدفعونه بينهم. عاوده ذاك المشهد فبكى كما بكى يومها. ولكنّه لم يسمع تلك الأصوات.

- أيّة أصوات؟

- أصوات الضّفادع.

- ضفادع؟

- ألم أحدّثك عنها؟

- لا.

- قلت لك إنّه أبصرها في المقبرة، ضفادع كبيرة خرجت من بين الأعشاب و من القبور وراحت تصدر أصواتا كالعواء.

- و لماذا ذهب إلى المقبرة؟

- صرت تنسين كثيرا. رويت لك كيف مات أبوه مصطفى وكيف أنّه لم يستطع البكاء على فقدانه وكيف انحبست الدّموع داخل عينيه وكيف ظهرت له تلك الضّفادع الرّماديّة والحمراء وهو واقف بين المشيّعين صامتا وشارد الذّهن فيما جسد مصطفى يوارى التراب.

- و عزّة؟

- ما بها عزّة؟ هي لم تتذكّر عزّ الدين فهي لا تعرفه إلاّ من خلال كلام ميلاد. هي بكت من الفرح. وحين أبصرت دموع ميلاد جفّت دموعها و أمسكت بوجهه بين كفّيها و راحت تقبّل رأسه حتّى هدأت نفسه و عادت عيناه إلى تعشّق جمال عزّة التي بدت ليلتها أجمل من الجازية.

- من؟

- الجازية.

- هذه لا أعرفها. و لا تقل لي بأنّك حدّثتني عنها.

- لا. لم أحدّثك عنها ولكن إن شئت رويت لك حكايتها.

- ميلاد يعرفها؟

- ها ها....ها.

- لم تضحك؟

- لأنّ ميلاد لم يسمع بالجازية ولم يعرفها. خليفة الزناتي كان يعرف الجازية.

- خليفة الزناتي؟

- إيه خليفة الزناتي.

- خليفة الزناتي أم محجوب الزناتي؟

- ما دخلي أنا في الجازية وخليفة الزناتي وبني هلال. الله يرحمهم.

- ماتت؟

- من؟

- الجازية؟

- يا امرأة. حكاية الجازية حكاية قديمة. جدودنا كلّهم يعرفونها. قالوا إنّها كانت أجمل امرأة في تونس.

- وأنت ماذا تقول؟

- لا إله إلاّ الله. أنا لم أرها لأحكم.

- لم ترها؟ أنا لن أصدّقك و إن حلفت على المصحف.

- اسمعي. أنا لا أكذب عليك. أحبّ أن تفهمي هذا. قولي لابنتك ما اتّفقنا عليه. و إلاّ والله لن أرضى عنها. انتهى الكلام.

- اهرب...اهرب...اذهب إلى الجازية أجمل امرأة في تونس. والله تعرفها. يا فاسد.

- يا ربّي صبّرني على ها البلية...

21

بعد أقلّ من شهر من زواجه، التقى ميلاد رشيدا في سوق الصبّاغين. ذهب لشراء السّمك لعزّة فرآه قادما نحوه. تصافحا بقوّة. كان رشيد من خطّط للّقاء. انتظره أمام بيته وتبعه إلى السّوق المكتظّ بالنّاس و قال له وهو يصافحه بأنّه يريد أن يحدّثه في أمر مهمّ.

غادر الرّجلان السّوق وقصدا مقهى صغيرا غير بعيد. بعد أن جلسا بادر رشيد بالكلام مهنّئا ميلاد بزواجه متمنّيا له السّعادة والهناء و أضاف قائلا:

- تمنّيت حضور العرس لكنّي لم أستطع. إنّهم يبحثون عنّي.

- من؟ الشرطة؟

- من غيرها. جاؤوا إلى ذلك البيت في الزّهروني و داهموه ليلا. الحمد لله أنّي لم أبت هناك ليلتها. لا أدري من دلّهم عليه.

- و أين تسكن الآن؟

- أرض الله واسعة.

- انتبه إلى نفسك يا رشيد. لا تدعهم يفعلون بك ما فعلوه بعزّ الدّين. لقد منعوني من زيارته. حاولت مرّات ولكنّهم كانوا يتعلّلون بأكاذيب كثيرة لم أصدّق واحدة منها.

- أعرف.

- كيف؟

- إخواننا أعلمونا بما يقاسونه في سجون هذا الطّاغية و نعلم أنّهم نقلوا عزّ الدّين إلى مكان آخر.

- أين؟

- الحقيقة، نحن لا نعلم بعد. ولكن اطمئن...

- كيف أطمئنّ يا رشيد، كيف؟

- نحن نعلم أنّهم لم يصفّوه.

- يصفّونه؟

- أعني لم يعدموه كما فعلوا مع إخوان لنا آخرين.

- يعدمونه؟

- أعدموا العشرات بلا جريمة ولا محاكمة...

- ولماذا؟

- ليظلّوا في الحكم. أغواهم الشيطان فأنساهم الحقّ والفضيلة. يقتلوننا لأنّهم يعتبروننا أعداءهم. يقتلوننا لأنّهم عبيد لليهود الصهاينة. إنّهم يخافون من كلّ من يذكّرهم بالله وبالخير...

- و ماذا يفعل من كان الحاكم غريمه؟

- الإيمان والصّبر والجهاد في سبيل الله بما يتيسّر لنا وسوف ينصره الله آجلا أم عاجلا.

- ولكن يا رشيد، قل لي بربّي، و فسّر لي على قدر فهمي. كلّ النّاس تصلّي و تذهب إلى المسجد فلماذا يأخذون أشخاصا دون غيرهم و يلقون بهم في السّجون ويعذّبونهم كما عذّبوا عزّ الدّين أخي. رأيت وجهه. حطّموا أسنانه. لن أغفر لهم. صدّقني.

- نحن أيضا لن نغفر لهم ما فعلوه بإخواننا وبكلّ المظلومين في بلادنا. أمّا الذّين تراهم في المساجد فليسوا كما يبدون لك. منهم مخبرون للحاكم ومنهم منافقون وقلّة قليلة من أحباب الله.

- و عزّ الذّين؟

- هو أحبّ إخواننا إلى شيوخنا كلّهم. لا تشكّ في هذا يا عمّ ميلاد. كأنّك لم تكن تعرفه؟

- أحبّ أن أعرف أكثر عنه و عنكم و عن كلّ شيء. أشعر أنّي كنت أعيش بلا عينين و بلا عقل.

- لا تلمْ نفسك. بلادنا كلّها مغمضة العينين. لكن لا . سيأتي يوم و يتغيّر هذا الحال. سيأتي يوم.

- و عزّ الدّين؟

- سيرى ما كتب له. الله وليّه. هو أعلم بما قدّر له.

- و نعم بالله.

- أنت لا تعرفُ لمَ جئتك اليوم؟

- لا. خير؟

- لن يكون إلاّ الخير. الشيخ يريدُ أن يراك.

- الشيخ؟

- ومن هو الشيخ؟

- ستعرفه حينما تراه؟

- هل كان يعرف عزّ الدّين؟

- بالطّبع. و لذلك يريدُ أن يقابلك. وإن وافقتَ تقابلهُ غدا بعد صلاة الجمعة بحول الله.

- موافق... موافق. أفعل أيّ شيء من أجل عزّ الدّين. أريد أن أعرف ما غاب عنّي سنينا. أين أراهُ؟

- تنتظرني هنا و سآتي لمرافقتك.

- اتفقنا.

- أتركك الآن في أمان الله.

- ربّي يحميك يا رشيد. إلى اللقاء.

وقف الرّجلان مسلّمين. غادر رشيد المقهى و تبعه ميلاد بعد أن دفع ثمن القهوتين اللّتين ظلّتا على الطّاولة دون أن يشرب منهما أحدهما رشفة واحدة.

وقف هنيهة على رصيف المقهى يتابع المارّين بنظرات هائمة و سرح بخياله في الكلام الذي تبادله مع رشيد راسما للشيخ صورا عديدة و للقائه به أشكالا مختلفة، ثمّ انتبه لوقفته تلك و عاد إلى سوق الصبّاغين لشراء السمك.

فرحت به عزّة كثيرا فهي تحبّ ولد البحر. تعشق رائحته طازجا أو مطبوخا أو مشويّا و تتفنّن في إعداده.

22

يبدأ كلّ شيء حين تكتمل أسباب تكوّنه. لابدّ من سبب وجيه يمنعه من التدخّل في قضيّة عزّ الدّين زرود. أيّ شيء أخطر من السّياسة في هذا البلد؟ حتّى أصحاب المشاكل السّياسية توسّطنا لهم. لكلّ شيء ثمن. و هاهم ينعمون بالحريّة بعد أن كانوا وراء الشّمس.

كلّهم أرقام، و لكلّ رقم قيمة لا تتغيّر. الصّفر صفر و الواحد واحد و السبعة سبعة. وعزّ الدّين مهما فعل رقم يمكن حصره بين رقمين، رقم أصغر منه مباشرة ورقم أكبر منه مباشرة. إذن ما الذي يمنع فاتح البليسي من حلّ معادلته؟

ما الذي تخفي أيّها الثعلب العجوز؟

كان حسني الدلّال يجلس وحده في مطعم " الغرينيكا" في ضاحية قرطاج و يحاول فهم هذه المعادلة التي بسطها أمامه ميلاد زرود. كانت تبدو بسيطة و مقدور على حلّها. شابّ مثقّف و عاطل عن العمل تقبض عليه الشرطة و تودعه السّجن.

لا يهمّ السّبب. استحضر عشرات الحالات المشابهة. يُعْلِمُ سي فاتح بأسمائهم و أماكن القبض عليهم... و لا تمضي أيّام قليلة حتّى يُطلَق سراحُهم. ليس ثمّة مشكل بلا حلّ. تعلّم حسني هذه القاعدة خلال سنوات دراسته و أكّدها عمله مع فاتح البليسي... فكيف تنعدم الحلول في هذه القضيّة؟

هل تكون هناك علاقة بين فاتح و عزّ الدّين؟ و أيّ نوع من العلاقة هي تلك؟

-نعيم...نعيم

-سيدي حسني؟

-افتح لي قارورة بيضاء و هات الكَمْيَة، قرنيط.

-لحظة زمنية. أنت تأمر.

استعمل حسني جميع فرضياته. لم تصمد واحدة. كانت تلك الفرضيات تتدافع بالمناكب في ذهنه لتخرج. و كان هو يتابع تدافعها و يستقبلها واحدة تلو أخرى و أحيانا يواجه فرضيّتين اثنتين معا فيحاول التوفيق بينهما و فهم المسألة عبرهما و لكنّه إذ يكتشف خواءهما يلقي بهما معا من علوٍّ و يرفسهما بحذائه كعقب سجارة و يسكب كأسا من نبيذه يشربها دفعة واحدة كما لو كانت تلك الحركة فاصلة بين فرضية وأختها...

إحدى الفرضيات قادته إلى طليقته هالة. لم يشأ أن تكون حاضرة في تلك اللحظة، و لكنّها انسحبت إليه من بين كومة الأعداد التي وضعها أمامه يفرز بعضها عن بعض في مجموعات متناسقة:

المجموعة الأولى تتناسب داخلها الأعداد البسيطة، تلك التي لا تحيل إلاّ على نفسها، أصحاب القضايا الواضحة، سرقة، تدليس وثائق، تهرّب من الضرائب، الغشّ في تجارة أو في معاملات إدارية، رشوة مسؤول في موقع قرار، التحيّل لكسب مادّي، شراء الذمم، استبدال طبيعة أراض من فلاحية إلى سكنية بتزييف وثائق ملكيتها، بيع سلع انتهت صلوحيتها، إلخ...إلخ...

المجموعة الثانية تتناسب داخلها الأعداد المركّبة، تلك التي تكون سطحا لعددين أو أكثر، العمل تحت غطاء شركة وهمية، المشاركة في صفقات عامّة بعد الفوز بعروضها بتدبير من المديرين المتنفّذين في الوزارات و الشركات العمومية، بيع نفس المنتوج للدّولة مرّات عديدة و قبض ثمنه أضعافا دون أن يغادر مخازنه، إقامة أحياء سكنية و بيعها دون أن يدخل إلى ميزانية الدّولة ملّيم أحمر، تغيير أسماء سلع قادمة من الصّين و إعادة تعليبها و رفع أسعارها عشرات الأضعاف بمباركة من المصالح المختصّة وبتصاريح قانونية بترويجها في الفضاءات العامّة، تهريب الوسكي و الباستيس و المالبورو في سيّارات ديبلوماسية، إلخ...إلخ

ثمّ تأتي المجموعة الثالثة التي تتناسب داخلها الأعداد المركّبة تركيبا مضاعفا، تلك التي تتشابك علاقاتها فلا يستقلّ واحد عن غيره و إن صادف و انماز عدد عن سواه فلخطأ في التحليل أو في الحساب، فتح محلاّت راقية للدّعارة تؤمّها بنات

يقبضن أجورهنّ بالدّولار و اليورو من رجال أغلبهم من السياسيين و السلك الدبلوماسي، التسهيل لشركات أجنبية بفتح فروع لها في البلاد و جمع المساهمات في رؤوس أموالها من رجال الأعمال الجدد و من أفراد من العائلة الحاكمة تحت أسماء مستعارة، تبييض أموال تحت غطاء منح للجمعيات الخيرية والحقوقية و التضامنية و تنظيم حصص بيع في البورصة لأسهم لا وجود لها في أرض الواقع، تقديم قروض خيالية لتموين مشاريع عمومية لفائدة أحدهم، تنظيم حفلات جمع تبرّعات للعائلات الفقيرة و المناطق المحرومة و رفع المحاصيل إلى حسابات في الخارج، إلخ...إلخ..

كان يمكن أن يواصل فرز مجموعاته و ترقيمها و ربط العلاقات بينها و الرّمز لها بعلامات يعرفها و لكن ظهور هالة بين تلك الأعداد جعله يوقف تصنيفاته و يدقّق في هذا الرّقم الذي برز له فجأة دون أن يكون من بين المعطيات الأولى التي بسطها أمامه. رقم يعرفه جيّدا و خبره لسنوات طويلة، رقم يدّعي أنّه صاحب الفضل في اكتشافه و صنعه. و يعيد بينه و بين نفسه بأنّ لولاه ما كان هذا الرّقم ليكون و يحتلّ موقعا بين الأعداد الأخرى و يكبر شيئا فشيئا، و لكنّه يحاول في كلّ مرّة أن يتهرّب من فرضية أنّ هذا الرّقم الذي ابتدعه من عدم له الفضل كلّه عليه و لولاه ما كان له أن يكون في الحال التي أضحى عليها. لولا هالة لما صار هو سي حسني الدلاّل صاحب الملايين و لما غادر مكتب إدارة المحاسبة العمومية و لما ارتقى إلى مرتبة رقم يُعتدّ به و يقرأ له ألف حساب. هالة التي صنعها صنعته. لماذا ظهرت فجأة من خلال فرضية طرحها أمامه. أتكون لها علاقة بموقف فاتح البليسي الذي اشترى منه رقمه الصّغير و حوّله في رمشة عين إلى رقم كبير يختزل أرقاما؟ ما الذي يربط هالة بعزّ الدّين زرود، أستاذ الفلسفة المعطّل عن العمل و المسجون في سجن السياسة؟

- Blanc du blanc وصحيّن قرنيط للمعلّم حسني

- مارسي عليك يا نعيم

- و الله نحبّك لوجه الله

- أنت خويا...

- بالشفاء ليك.

يبتعد نعيم و يعود حسني الدلاّل إلى معادلاته. تعبر صورة أخيه حسن خياله فلا يدقّق فيها، يبتسم فحسب. ثمّ يلاحظ توسّع ابتسامته داخله شيئا فشيئا و هجومها تدريجيا على وجه هالة و تعتيم صورتها. صارت مجرّد خلفية باهتة لبسمته التي راحت تتمدّد و تغطّي معادلاته و أرقامه و تمنعه من البحث عن إجابة لسؤاله، فلم يملك إلا أن استسلم لها طائعا و تركها تعبر إلى شفتيه ثمّ إلى عينيه ثمّ إلى كامل وجهه... هي ابتسامة يعرفها جيّدا، ويعرف أنّها ستقوده إلى ضحك متقطّع يسمعه من يجالسه ثمّ سرعان ما تتحوّل إلى ضحك عال لا يمكن لأحد أن يتجاهله و ينتهي عادة بفقدانه السيطرة عليه، لذلك حبس حسني الدلاّل ابتسامته ووقف و نادى نعيما و أعطاه أكثر من ضعف المبلغ المطلوب ثمّ غادر المكان مبتسما... تلك الابتسامة لم تركب معه السيّارة، ازورّت عنه ذات اليمين و اتّخذت لها مكانا أعلى شجرة السّرو التي تحاذي مطعم الغرينيكا منتظرة أن يأتي من يحتاجها...

23

ليس صحيحا أنّ الشمس لم تعد تهتمّ لأمر ميلاد و أنّها غاضبة منه. حتّى زواجه من عزّة لم يغيّر شيئا لديها تجاهه. ما تزال شمسه. تفرح حين تبصره يجهّز عربته و يعدّ بضاعته عليها و يعبر المدينة نهجا تلو نهج مدندنا بعض الأغاني التي يستلّها من ذاكرة والده مصطفى. و لكنّها وهي تراه من عليائها، صباح الجمعة، يخرج من بيته مصبّحا على أمّه الجالسة في ركن من الدّار على جلد خروف تحادث عزّة الواقفة، لم ترد أن تتابع حركاته و تحوّلت عن مكانها.

هي تعلم أنّه يتهيّأ لمقابلة الشيخ. وهي تعلم أنّ الشيخ لن يحلّ المشكلة و أنّ ميلاد لن يغنم من زيارته تلك غير شيء واحد، مسبحة سيدّعي الشيخ أنّها من بيت مكّة و تعلم أنّ ميلاد سيخرج من عنده مختلفا عمّا كان عليه و ستتغيّر داخله أشياء عديدة.

ما إن وقعت عينا الصّالحة على ابنها حتّى صبّت عليه أدعية و خصّت عزّة بآخرها، يخلّص وحلك يا بنيّتي والله صبرت ونلت يا ميلاد يا كبدي، ربّي يحبّك سخّرلك امرأة مثل عزّة. ربّي يرزقك بالذريّة الصالحة و ينوب عليك بجاه سيدي محرز و جميع الأولياء الصالحين.

قبّل ميلاد جبينها جاثما على ركبتيه فأمسكت برأسه و راحت تمرّر أصابعها في شعره. هو لم يخبرها بأمر الشيخ و لكنّه أحسّ أنّها تعرف. فكّر بأنّ عزّة قد تكون أخبرتها و لكنّه وهو ينهض من حصنها استبعد الفكرة و مضى إلى بيت الاستحمام.

عزّة أحضرت له فطوره. هي تنهض باكرا حتّى أنّه سألها يوما "متى تنامين يا عزّة؟" فأجابته مبتسمة "النّوم للقطاطس"

ظلّت شمسه مختبئة حتّى بعد خروجه من البيت وراء غيمات موليةً بوجهها عنه.هو لم يرفع بصره إليها و لم يفكّر فيها، كان ذهنه منشغلا بمقابلة الشّيخ و السّؤال عن أخيه عزّ الدّين. كلّ شيء غير هذا لم يكن مهمّا لديه.

"يرحم عمّ مصطفى". قال له فرحات صاحب مقهى البركة في قلب نهج جامع الزّيتونة و هو يستقبله فردّ ميلاد " تعيش و ترحّم يا فرحات " و أضاف:

-أعطني قهوة فيلتر.

فردّد فرحات ما قاله ميلاد بصوت عال:

-قهوة فيلتر مزيانة لولد حومتي.

ابتعد عنه خطوات ثمّ عاد وسأله عن أخبار عزّ الدّين.

-كلّ شيء مقدّر. إن شاء الله خير.

-ايه يا خويا و الله يجيرنا من الحاكم. ربّي يخفّف عليه.

-يرحم والديك.

غاب فرحات داخل المقهى الصّغير و ظلّ ميلاد يتابع العابرين أمامه في ذلك النّهج الذي يقود إلى جامع الزّيتونة والقصبة حيث الوزارة الأولى من جهة و إلى شارع فرنسا ثمّ شارع بورقيبة حيث وزارة الداخلية من جهة. ميلاد يقطع نهجين من بيتهم ليبلغه. يمرّ به يوميّا وهو يدفع عربته و لكنّه نادرا ما يجلس فيه. كلّما رآه فرحات يسلّم عليه و يرحّم على أبيه. لهما نفس السنّ. درسا معا في مدرسة كتّاب الوزير. و كلاهما انقطع عن الدراسة مبكّرا. فرحات إلى مهنة أبيه و كذلك ميلاد. أولاد فرحات في الجامعة. تزوّج مبكّرا. لعلّ ذلك ما جعله يشيخ باكرا كما يقول دائما. "والله أنت فاهم الدّنيا يا ميلاد. تبارك الله ما تزال شابّا، أمّا أنا فانظر إلى حالي".

الحقّ أنّ من ينظر إليهما لا يشكّ في أنّ فرحات أكبر من ميلاد بأعوام كثيرة. فرحات يقاسي الأمرّين رغم ما يبدو عليه من مرح و خفّة روح. ذلك من مستلزمات العمل. ابنته هربت مع سائح بلجيكي منذ أكثر من خمسة أعوام وانقطعت أخبارها عنه. يقال أنّه تلقّى منها رسالة معها صورة لها ولابنها... هي

ابنته الكبرى. التقت بالبلجيكي في مقهى والدها ولا أحد يدري كيف سافرت معه. الله يعلم أين. لم يكن لها جواز سفر ولا مال ... باتت ما أصبحت. تركت لهم ورقة في غرفة نومها كتبت فيها" لا تبحثوا عنّي لقد هاجرت".

أبوها لم يترك بابا إلاّ و طرقه. قالوا له في النّهاية، إنها أخذت الطائرة إلى باريس. و أضافوا أنّهم لا يستطيعون فعل أيّ شيء و قد جاوزت العشرين من عمرها و أنّه إذا أراد البحث عنها فليتّصل بالسفارة الفرنسية. و قد فعل لكن بلا جدوى فسلّم أمره لله.

تذكّر ميلاد ذلك وهو يبصر فرحات قادما إليه حاملا صينية العمل. انتبه إلى أنّ صديق طفولته يبدو عجوزا فعلا رغم أنّه لم يتجاوز الخمسين. تناول قهوته بعد أن سكب فيها فرحات قطرات من ماء الزهر وانصرف إلى زبائنه.

"الحيّ يقاسي". ردّد ميلاد في سرّه و عاد إلى متابعة المارّين من نهج جامع الزيتونة دون أن يغيب عن خياله موعده مع الشّيخ الذي رسم له صورا عديدة لا يدري من أين جاء بها. صور تغشاها القداسة والهيبة. رأى الشيخ شخصا مهيبا تملأ محيّاه علامات الإيمان و التّقوى و يشعّ من وجهه الجلال لذلك حين دخل عليه و أبصره تملّكه شعور بالخيبة. فالشيخ رجل عاديّ مكتنز الجسم و قصير، توزّعت على ذقنه شعيرات بيضاء لم ينقطع عن لمسها طوال المدّة التي قضاها برفقته و على رأسه عمامة سوداء يغطّي طرفها المتدلّي نصف وجهه. وهو يتكلّم مثل كلّ النّاس. لا فرق بينه وبين أولئك الذين يراهم يدخلون مسجد سيدي عيسى في آخر نهجهم. طلب منه الشيخ أن يجلس ففعل تاركا بينهما مسافة مترين أو تزيد قليلا، هكذا قال له رشيد قبل أن يفتح له باب الغرفة و شدّد عليه بأن يظلّ صامتا حتّى يأمره الشيخ بالكلام و أن يظلّ جالسا حتّى يأذن له بالانصراف. ميلاد نفّذ ما قال رشيد. سلّم على الشيخ و ظلّ صامتا شاخصا ببصره إلى هذا الرّجل الذي لا يوحي مظهره بالمكانة التي ارتسمت له في خياله. و سمعه يتكلّم.

هنّأه على أخيه و أثنى على تربيته و شكره على ذلك و أخبره بأنّ عزّ الدين مثال للشاب المسلم و بأنّ المحنة التي يمرّ بها ستقوّيه بحول الله تعالى وهو من

الصابرين على كلّ حال و أنّ حبسه لن يطول و إن طال فتلك إرادة الله و قضائه و لا رادّ لقضاء الله. و حدّثه عن خصاله مطنبا في مدح اعتزازه بالانتماء إلى الجماعة التي لا غاية لها سوى إقامة شريعة الله و نشر العدل والخير بين النّاس و مقاومة أعداء الدّين. ثمّ كمن نسي شيئا مهمّا مدّ يده إلى أحد جيوبه و أخرج مسبحة حمراء مدّها إليه قائلا عسى أن يهديك الله إلى الصّلاة، إنّها من مكّة الحبيبة. أخذ ميلاد المسبحة شاكرا، فواصل الشيخ كلامه:

-لا تخف على عزّ الدّين. لقد كلّفنا من يساعده في السّجن و لن يصيبه مكروه و لن يحتاج شيئا فيه إلاّ الدّعاء له بالصّبر.

لم يطق ميلاد صبرا فأطلق أسئلته التي أعدّها دون أن ينتظر إذن الشيخ:

-بالله يا شيخ قل لي ماذا فعل عزّ الدّين ليقبض عليه الحاكم؟ و لا تقل لي لأنّه يصلّي بحقيقة، و لماذا قال لي الضابط في مركز الشرطة بأنّ عزّ الدين قد غرّروا به و بأنّ ما قام به خطيرجدّا. لقد زرته و رأيتُه...و الله لولا أنّه أخي لما عرفته. لقد حطّموا أسنانه...فكيف تقول لي بأنّه لن يصيبه مكروه؟ أننتظر حتّى يقتلونه؟ ماذا أقول لأمّه و أختيه؟

لم يبد على الشيخ أيّ انزعاج، و لم يتكلّم، سمع ميلاد دون أن يقاطعه ثمّ قال له:

-صلّ على النّبي أنت مؤمن

-اللهمّ صلّ على سيّد الخلق.

-الحاكم ظالم يا ابني. يريد أن يمحو دابر الإسلام من هذه الدّيار. نحن لا نرضى بهذا وليس ثمة من يرضاه. سنجاهد في سبيل الله كما جاهد المسلمون الأوائل، سلفنا الصّالح. و سنهزم هذا الطّاغية بإذن الله تعالى. هو يملك السّلاح و السّجون و نحن نملك الصّبر والإيمان و سننتصر لأنّ الله يريد ذلك. لا تخف واجعل إيمانك بالله قويّا. انصرف الآن و نحن حافظون عهدنا مع أخينا عزّ الدّين. إن احتجت أيّ شيء نحن هنا. كلّنا إخوان. في أمان الله يا ميلاد.

وقف ميلاد ذاهلا وسلّم على الشيخ ثمّ انصرف. قال له رشيد بأنّه سيزوره قريبا و عانقه عناقا طويلا.

غادر ميلاد المكان وهو لا يعلم أيّ شعور انتابه، لكنّه أحسّ بدمعة مفردة و دافئة تسيل من عينه. تلك الدّمعة لم تصاحبه في طريق عودته إلى بيته. ازورّت عنه ذات اليسار واتّخذت مكانا لها اسفل العتبة الرّخامية التي تنبسط أمام بيت الشّيخ. نظر ميلاد نحوها ماسحا آثارها من على خدّه و غاب في الزّحمة.

24

في المساء روى ميلاد مقابلته للشيخ لأمّه التي لم تكفّ عن الصّلاة على الرّسول. و حين أتمّ حديثه قالت له بأنّها لم تفهم شيئا. هزّ ميلاد رأسه و قال:

-أنا أيضا لم أفهم شيئا.

عزّة بكت. علّقت آمالا كبيرة على تلك الزّيارة شعرت بأنّ زوجها مكسور الخاطر فبكت. هي لا تعرف عزّ الدّين و لكنّها تحبّه مثل ابنها. سمعت ميلاد يقول "ولدي عزّ الدّين" فراحتْ تقول "ولدي عزّ الدّين".

ليلتها نام ميلاد مغتاظا. لم يتناول شيئا من السّمك الذي أعدّته عزّة. نام بثيابه، منكمشا على نفسه، إلى أن أشرقت شمس اليوم التّالي.

تلك الشّمس لم تكن شمسه، لذلك لم يعرها اهتماما. ألقى إليها نصف نظرة ثمّ غادر البيت.

عزّة لم تره يخرج. سمعت صوت الباب يغلق فتنهّدت و غطّت الفطور بمنديل مرتعش.

- لم يفطر؟

- لم يفطر...

- المسكين. حكاية عزّ الدّين قهرته. الله يكون في عونه. قل لي يا محجوب.

- نعم.

- ألم تقل ذات مرّة أنّ مسؤولين كبارا يشترون من عندك؟

- صحيح. أنا لا أزيد عليك. و أحدّثهم مثلما أحدّثك الآن.

- كلّمهم.

- ماذا قلت؟

- قلت لمَ لا تطلب منهم أن يساعدوا ميلاد؟

- يا امرأة...يا امرأة... قلت لك ألف مرّة أنا لا أعرف ميلاد و لم أقابله يوما في حياتي. حكاية حكاها لي صاحبي و أنا رويتها لك.

- اللّطف. الرّحمة انقطعت من بني آدم.

- والله يا حليمة. قلت لك الواقع والحقيقة. لماذا سأكذب عليك؟

- خذْ بخاطري. ساعده.

- لا حول و لا قوّة إلاّ بالله.

- كلّمهم عنه. ماذا ستخسر؟ ما دام الرّجل الذي ذهبوا إليه لم يفعل شيئا و الشيخ لم يفعل شيئا. أمّه صالحة المغبونة تعاني و ميلاد أخوه دخل في دوّامة و أنتَ لا ترحم و لا تترك رحمة تنزل.

- أنا هو المهبول. أحكي لإنسانة لا تفهم الكلام. و الله لو كنت أعرف ميلاد لساعدته بما أقدر عليه. و أريد أن أطمئنك عزّ الدّين رجع إلى بيتهم.

- و لماذا لم تقل لي؟

- لأنّ الحكاية ما زالت متواصلة. نبدؤها من بدايتها و ننتهي في نهايتها. أنا لم أحك لك عمّا فعل ميلاد ولا عمّا وقع لحسني الدلاّل ولن تفهمي الحكاية إذا لم أحدّثك عن اليوم الذي ولدت فيه عزّة و أنجبت توأما.

- اللّهم صلّ على النّبيء. ولدت قبل رجوع عزّ الدّين أم بعده؟

- قبل رجوعه بأكثر من سبع سنوات. عاد فوجد البنتين في المدرسة.

- سبع سنين؟

- إيه سبع سنين.

- الحمد لله أن فرحت أمّه الصالحة برجوعه. كم صبرت المسكينة. ابن آدم يقاسي.

- لا. الصالحة ماتت قبل أن يعود عزّ الدّين بسنتين. ربّت علياء ابنة ميلاد و أختها ثريّا في حضنها خمس سنوات. عزّة لم تتعب في تربيتهما.تكفّلت الصّالحة بذلك. البنتان لا تنامان إلاّ في حضنها.

- الله يرحمها و ينعّمها. ماذا وقع يوم ولدت عزّة؟

- دعيني أحك لك عمّا فعل ميلاد حينما خرج من البيت دون أن يفطر. قلت لك إنّ الحكاية نبدؤها من بدايتها و ننهيها شيئا فشيئا. لا نقفز على شيء حتّى نفهمها كما يجب.

خرج ميلاد من البيت و لم يفطر. كان ينتظر الصّباح ليذهب عند عبد السلام عامر و يحكي له حكاية الشّيخ الذي قابله.

وجده في المقهى كالعادة. استمع عبد السلام لصديقة دون أن يقاطعه لا سائلا ولا معلّقا. ميلاد صبّ الحكاية صبّا و ختمها بإخراج المسبحة من جيبة و مدّها لعبد السّلام الذي علّق قائلا:

-إن شئتَ أتيتُ لك بمثلها من سوق ليبيا. أكداسٌ مكدّسة.

كان ميلاد موافقا لذلك لم يضف كلمة واحدة. غادرا المقهى واتّجها إلى باب الجزيرة. قال ميلاد:

-أريدُ أن أقابل سي حسني.

كان المكان مرصوصا بسيّارات الأجرة الجزائرية و اللّيبية "طرابلس... طرابلس... عنّابة... عنّابة... لذلك كانا يتحاوران بصوتٍ عالٍ.

-ذهبتَ إلى مكتبه؟

-ثلاث مرّات. قالت لي السكريتيرة إنّه لم يأت من مدّة.

-إن شاء الله خير؟

-قد يكون مريضا. من يدري؟

-ألا يعرف نسيبك توفيق بيته؟

-اللهُ أعلم. نسأله.

-نذهب إليه الآن؟

صمت عبد السّلام لحظة ثمّ أجابه:

-هيّا.

توفيق يعمل في إدارة الملكيّة العقارية "دفترخانه" بجهة لافايات قربَ مبنى الإذاعة. بلغا المكان بعد قرابة نصف ساعة. عبد السلام يعرجُ بعض الشّيء. هو يخفي عرجه. رجله اليمنى أطول من اليُسرى قليلا و لكن لا أحد يعرف ذلك.قال له ميلاد:

-أنتظرك في هذا المقهى.

مقهى "علي ورق" قبالة البناية التي دخلها عبد السّلام و صعد درجها الرّخامي الجميل. ميلاد طلب إكسبراس من النّادل الذي بدا متجهّما، و راح يتابع حركة المّارّين في شارع الحريّة من خلال الباب البلّوريّ. ظلّ يحملق. عيناهُ مفتوحتان و لكّنّهما لا تريان إلاّ خيالات تعبر.مرّت بذهنه وجوه عرف أصحابها في هذه الجهة

من العاصمة و أخرى لا يدري كيف قفزت إلى خياله. رأى حسونة الطبّال ذا العينين الجاحظتين لم يكن يضربُ طبلة و لا كان أبوه. إنّما هو اسمه. هكذا.

" يا حَسُّونَةْ يا رأس الفرتونةْ "، يقول له المكّي. هو لا يغصب. يغضب حين يخسر في لعب الورق.

-ما هي الفرتونة؟

-الله أعلم.

حسّونة الطبّال ذبح زوجته بسكّين بو سعادة. ذبحها في الفجر و جرّها بدمها من نهج القمح إلى الجامع. مدّها على عتبة الباب و جثم بجانبها يولول كالنّساء حتّى انقطع صوته. ظلّ هناك إلى أن وصل المصلّون فلفّوها بخرقة قماش و أعادوها إلى البيت و بقي هو على حاله. لم ينطق بكلمة مذّاك. كان يصدر صوتا كالخوار سرعان ما تحوّل ثغاءً أو عواءً. لم تجد الشرطة ما تفعله معه. صمامة لا يفقه شيئا. لا يتكلّم ولا يسمع. قالوا إنّهم أخذوه إلى مستشفى الرّازي بعد يوم من حجزه في المركز. مستشفى المجانين بضاحية منّوبة. هناك شجّ رأسه بحجارة أو بقضيب حديديّ. الأرجح أنّه أخذ يضرب الجدار برأسه حتّى مات.

جنازة زوجته عزيزة الفاجرة مشى خلفها أربعة أنفار. دفنوها في دقائق و شاع الخبر. قال بعضهم إنّها كانت مدوّدة. هم يقصدون تحبّ ممارسة الجنس. خانت حسّونة مع الجميع. هو يخرج من البيت في المساء وهي تستقبل الرّجال. كان يعمل حارسا ليليّا. يعود عند الفجر. لا أحد يعرف لها عائلة. قالوا إنّها مغربيّة. جاءت إلى تونس بعد الاستقلال مع أبيها، طفلة. و حين مات تشرّدت و عملت في البيوت بالمونة، تأكل و تشرب إلى أن التقت بحسّونة الطبّال الذي تزوّجها و كتب صداقها الشيخ بوخريص. هي لم تنجب له أبناءً و لكنّه لم يطلّقها. رضي بالمكتوب.

" يا حسّونهْ يا ترّاسْ

هات الفردهْ و المقياسْ

و إيجا دُقْ على خُوخِتْنَا

يا حسّونه يا مهبولْ

الزوّالي كلاه الغولْ و أنت تعسْ على جنِينِتْنَا

يا حسونهْ يا بوهالي

تقول عزيزه راهي حلالي

وهي تحَنّي على حصيرِتْنَا...

ضمّوا بيت حسّونة إلى المسجد. ربّما من جهة اليمين. و قد يكون من جهة اليسار. من يتذكّر حسونة الطبّال اليوم. من يتذكّر ضحكته العالية وهو يرفعها في قهوة المراح، كأنّه أسعد خلق الله؟

جاء عبد السّلام عامر.

-أكمل لي حكاية الطبّال.

-انتهت الحكاية.

بالله أكملها.

-والله انتهت حكايته...ميلاد لم يعرف حسّونة الطبّال. تذكّره فحسب.

-كيف يتذكّر شخصا لم يعرفه؟

-يملك ميلاد ذاكرتين. ذاكرته و ذاكرة والده مصطفى. قد يكون مصطفى هو الذي يعرف حسّونة و يعرف عزيزة. من يدري؟ قلتُ لك جاء عبد السلام مبتسما.

-ماذا فعلت؟

-اطمئنّ سيبلّغه. قال لي أنّه يعرف كيف يلقاه. و أكّدتُ عليه.

-برحمة والديك يا عبد السّلام؟

-أنت أخي يا ميلاد و عزّ الدّين ولدي.اشرب قهوتك و هيّا.. عندي ضيوف في الدّار.

-خطّاب؟

-ربّي يسهّل.

-من تونس أم من البلاد؟

-من الكاف. قالوا لي ضابط في الجيش.أصله من الجريصة. خالته تسكن في "صبّاط عجم" تعرف الدّار. تزورنا. أعجبتها البنيّة.

-ربّي يكمّل بالهناء و تربّي أولادها.

-يسترك يا ميلاد...هيّا ...عليّ أن أمرّ على السّوق. أوصوني بحاجات.

دفع ميلاد للنّادل وانطلقا. حكى عبد السلام لميلاد عن ابنته واعترف له بأنّه تفاجأ حين أخبرته زوجته بأمر خطبتها. "كبرت في الغفلة"

لم يسكت إلاّ حين بلغا سوق باب الفلّة. ودّعه ميلاد عند زنقة العصفورية حيث دكّان منصور الحشيش وواصل طريقه.

-منصور الحشيش؟

-ذاك الذي تعارك معه و أصلح بينهما عبد السّلام عامر. تذكرين؟

-أما يزال غاضبا منه؟

-لا أعرف.

-ألم يخبرك ميلاد عنه؟

-يا امرأة أنا لا أعرف ميلاد.

-يظهر لي، يا محجوب، أنّك بدأت تخرّف.

-أخرّف؟...أخرّف.جائز. و ها إنّي أغلق فمي. لن تسمعي منّي كلمة و رحمة أمّي بحريّة.

-الله يرحمها.

-تتذكّر أمّي يا حليمة؟

أتذكّر؟ كيف لا أتذكّرها؟ كأنّها لم تمت. وجهها بين عينيّ هي التي أعطتني خلخال الفضّة. أنت لم تفكّر في الحلي. لم تشتر لي قشّة ذهب. و أنا لم أطلب. كنت مغفّلة.

-هل انتهى كلّ شيء؟

-إن شئت. ربّما. أنا لا أعرف أكثر. هذه هي الحكاية كما رووها لي. عليّ أن أضيف أنّ حسني الدلاّل سعى هو أيضا إلى معرفة الحقيقة. كانت حادثة عزّ الدّين زرود سببا ليترك العمل عند البليسي. قلت سببا. هناك أسبابٌ أخرى. البليسي أصيب بجلطة ثانية ألزمته الفراش. كتلة من اللحم يحرّكها الخدم كلّما غيّروا له ملابسه أو ملاحف السرير، أو يعرّيها الأطبّاء و أخصّائيو العلاج الطبيعي. هالة استحوذت على ما تعرف من شركاته و تابعت العمل. ساعدها محامون و عيون لها كانت قد أعدّتهم لمثل ذاك اليوم.

قبل أن يسقط فاتح البليسي في مصنع المشروبات و المياه المعدنيّة الذي يملكه و قبل أن ينقلوه إلى المستشفى العسكريّ حيث أمضى أكثر من شهرين غائبا عن الوعي. جاءه حسني إلى مكتبه في ذلك المعمل. أرسل إليه من جاء به. استغرق

اجتماعهما أقلّ من عشر دقائق. سأل فاتح عن سبب غياب حسني عن العمل و اجاب حسني بأنّه لم يعد راغبا في العمل. لامه لأنّه لم يعلمه مسبقا.تعلّل حسني بأنّه لم يرد إزعاجه.. كلاهما يعرف أنّ ذلك غير صحيح لكنّ البليسي لم يضف شيئا كثيرا حين أعلمه حسني أنّه ينوي العودة إلى قصور السّاف، قريته ليبحث له عن زوجة يقضي معها بقيّة أيّامه.

فهم فاتح أنّ حسني يلقي أمامه احدى معادلاته الريّاضية التي لا حلّ لها رغم وضوحها الظاهر. قبل الأمر و لم يعلّق. أضاف قائلا:

-إذا احتجت أيّ شيء فلا تتردّد. تعرف مكاني رغم أنّ توقّفك عن العمل خسارة لي.

أجاب حسني بديبلوماسية مفضوحة:

-أنا من خسر سي فاتح.

لعلّ حسني كان يؤمن بذلك و لعلّه كان المخرج الوحيد الذي خطر بباله آنذاك. وقف فاتح و صافحه بحرارة. حسني لم يترك كفّه. قال له:

-سي حسني، عندي سؤال أرجو أن تجيبني عنه.

فكّر فاتح أنّ سؤاله سيكون حول هالة زوجة كليهما فقال له:

-اسأل ما تشاء.

فقال حسني:

-حدّثتك عن قضيّة منذ أشهر.

-ايه؟

- قلت لي يومها" خارج نطاقنا" و سألتك "سياسة؟" فأجبتني " أخطر". و قلت لي "أغلق الملفّ". هل تذكر؟

حين سمع فاتح البليسي سؤال حسني ووجد أنّه لا يخصّ هالة شعر ببعض ارتياح و أجابه:

-تذكّرت القضيّة. سألت عنها و قالوا لي ابعد. الحكاية top secret مسألة تحت نظر الرّئيس مباشرة.

لم يستطع حسني أن يضيع تلك الفرصة فأضاف سائلا:

-و ماذا فعل؟ شيء يحيّر.

- لا يهمّ ما فعله. المهمّ ما قالوا أنّه فعل.المسأله واضحة. قلناها من قبل. أليس كذلك؟ انس العمل الآن. انطلق إلى حياتك الجديدة. أحبّ أن أسمع عنك أخبارا طيّبة.

غادر حسني المعمل يومها و إجابة فاتح البليسي تحفر عميقا في ذهنه. "المسألة تحت نظر الرّئيس مباشرة".

لماذا يضع الرّئيس قضية عزّ الدّين زرود تحت نظره؟ ألم يجد شيئا آخر؟ و لماذا يهتمّ الرّئيس، وهو الرّئيس، بشاب فقير كسرت أحلامه في أن يكون أستاذا للفلسفة؟ لماذا لا ينظر الرّئيس إلى أولئك الذين نالوا من الدّنيا و أخذوا و شبعوا و أصابتهم التخمة من فرط ما ألقوا في أحشائهم؟ ألا يجدر بالرّئيس أن يعدل في هذا الأمر؟ ألا يجدر به أن يختار الشّخص الذي يستحقّ النّظر إليه؟ عزّالدّين لم يأخذ شيئا. و نظر الرّئيس هذا، ألا يوجد فيه غير العذاب و السّجن و التنكيل؟ ألا يمكن له أن يحتوى خيرا؟ وما الذي يجعل قضيّة صغيرة مثل قضيّة عزّ الدّين زرود جديرة بأن تكون تحت نظر الرّئيس المحترم؟ لماذا لا يضع أحداث جنوب البلاد تحت نظره، أحداث أمّ العرائس و الرديّف و المظيلة؟ أم هي تحت نظره بما أنّها آلت

إلى ما آلت إليه من تدهور لأوضاع السكّان و احتجاجهم المتواصل منذ أكثر من خمسة أشهر.

حسني يتابع ما يقع في الحوض المنجميّ باهتمام. البارحة أعلمه صديقه الجيلاني بوعود المحاسب في شركة النقل وهو من مدينة المتلويّ بما يقع دون أن تكتب الصّحافة عن شيء منه.

حدّثه عن المشانق التي نصبها رجال و نساء في أمّ العرائس أمام خيامهم مهدّدين بالانتحار الجماعي إن اقترب البوليس منهم و حاول نزع خيامهم. حدّثه عن إضرابات الجوع المتكرّرة و عن هروب عشرات من سكّان منطقة القصّاب من أمّ العرائس إلى داخل الحدود الجزائريّة. حدّثه عن حملة المداهمات الليلية للمنازل واعتقال مئات من الشباب. حدّثه عن تنكيل البوليس بالمعتصمين المطالبين بحقوقهم في التشغيل الذين نصبوا خياما على سكك الحديد. حدّثه عن شباب قرية "تبديت" التي تقع بين مدينتي الرديّف و أمّ العرائس الذين اعتصموا بمركز الكهرباء عالي الضغط الذي يزوّد الجهة بالطاقة و كيف أمر المعتمد بأن تفتح الكهرباء عليهم قائلا"نخدّموا الضّوء و نقتلوا الكلاب" و مات من مات...حدّثه عن إقدام البوليس على خلع الدّكاكين التّجارية و نهبها و عن إتلاف ممتلكات المواطنين و حرقها... الرئيس لم يضع هذا تحت نظره. قال له الجيلاني إنّ الجيش تدخّل قبل أسبوع أي يوم 6 جوان 2008. وانتشر في المدن و أعلن من خلال مضخمات الصّوت عن حظر التّجوال.حدّثه عن اغتصاب امرأة من قبل ثلاثة رجال من الشرطة في بيتها لأنّها زغردت حين أعلموها أنّ ابنها قد قُبض عليه مع عصابات المعطّلين عن العمل حسب قولهم. فرشوها أرضا و تناوبوا عليها قائلين زغردي يا قحبة. هل وضع الرّئيس هذا تحت نظره؟

خرج حسني من المعمل و قد شبّ حريق في خياله.فهم أنّ هناك أشياء تتجاوز الرّياضيات و الأعداد و المنطق و لا يمكن له حلّها. معادلات غريبة بدأت تظهر في البلاد بأرقام معروفة و لكنّها تبدو جديدة وغامضة. معادلات ما كان ليوليها اهتماما لولا أنّها غدت حديث النّاس. يسمعها هنا وهناك و عزّ الدّين زرود لا يعدو أن يكون معادلة لها طرفان ككلّ المعادلات. طرفها الأوّل معلوم يمكن فهمه و

إدراك علاقاته بسهولة و طرفها الثاني مجهول من الدّرجة الثالثة لا يمكن فهمه أو إدراك علاقاته لأنّ المسألة تحت نظر الرّئيس.

حين قابل حسني ميلاد زرود في بيته بضاحية قرطاج قال له ذلك. كان معهما عبد السلام عامر وصهره توفيق. ميلاد لم يفهم في البداية لأنّ حسني لم يسمّ الأشياء بأسمائها. أخذ يشتم كلّ شيء، السّياسة و السيّاسيين و الرّئيس و نظر الرّئيس و القوّادة و المتمعّشين من أصهار الرّئيس و أقربائه و أصهار أقربائه و أقارب أصهاره و البوليس و كلّ من له علاقة بالطرف الثاني من معادلته الجديدة. ثمّ كمن يعتذر نظر إلى ميلاد الذي كان يجلس أمامه في عينيه مباشرة و قال له:

-اسمعني جيّدا يا سي ميلاد. أردت أن أساعدك. و الله. و لكن المسألة أكبر منّي. هناك أمور تحدث في البلاد. أمور لا تطمئن.

عزّ الدّين واحد من مئات الشباب الذين وجدوا أنفسهم في السّجون بلا أيّ ذنب. هذا ما يريده الحاكم. و من يعارضه يدفع الفاتورة. هذا ما نعيشه يا ميلاد. بلادنا سائرة إلى ما لا يحمد عقباه. خرجنا من الاستعمار لاستعمار أكبر. يا ليت فرنسا ما خرجت. ماذا ربحنا من الاستقلال؟ علم و نشيد وطنيّ؟ و الظلم و الفقر و المحسوبية والجهوية و الاحتقار و المذلّة والركاكة و البلادة والحبوسات و السّكوت و النبوت و القوادة والطّحين و القحب و الرّخص والنّفاق و السّرقة و الخطفة و التزييف و التكييف والتخويف و التسويف و الوضاعة والمجاعة والجهل و القمل و الكوليرا والتيفويد و السّخط المسخّط و الجوع و الطمع و التسلّق و الكذب و السّفاهة و البلاهة والوسخ و الخمج والبطالة والعراء و الزطلة والدّواء الفاسد و السّلع المغشوشة و السّماسرة و الهبّاطة و القهر و النّفس المقطوع و دموع الرّجال و ضحك النّساء و الأفخاذ العريانة والبزازل المكوّرة و الهبل و الجنون و الضّياع و الغلاء و تهريب القمح و زيت الزيتون و الفسفاط والمتاجرة في البنات الصّبايا و الأولاد... أنا أعرف، بلادنا باعها هذا الطحّان المأبون الذي يقال له الرّئيس. الكلّ عنده سهم في تونس، الفرنسيس و الأمريكان و اليهود و أولاد بيت مكّة، الله يهلكهم، اشترونا بالبترول. كلّ مشروع في البلاد إلاّ و يملكون أكثر من نصفه. صارت بناتنا يحلمن بالدّولارات السّعودية. أنا أعرف، أراهنّ في

النّزل يرتمين على كلّ من يضع عمامة و يلبس هركة خليجيّة. بنات معاهد و كلّيات. تبكي عليهنّ، والله. ماذا أقول لك يا سي ميلاد؟ أنا أعرف أشياء تجنّن. المهمّ أن تعرف أنّك لست وحدك من يقاسي. و أنا سأعمل ما في وسعي لأصل إلى عزّ الدّين. أنا لم أعد أعمل في ذاك المكتب. أصبحتُ حرّا...

واصل حسني يتكلّم بلا توقّف يشرب من كأس الوسكي و يصبّ لرفيق و يواصل حديثه. ميلاد و عبد السلام لم يشربا إلاّ الماء. عرض عليهما حسني و لكنّهما رفضا. حدّثهم عن مشاريعه المستقبلية و شاركهم في بعض أسراره وانطلق من جديد في شتم الواقع...

ميلاد لم يتكلّم. لكنّه أحسّ بشيء يغلي داخله و بحرارة مفاجئة راحت تصّاعد في جسمه فيتدفّق عرق غزير من مسامه. و إذ هاله ما سمع، و وجد أنّه كان يحيا خارج الواقع، انتابته موجة من احتقار الذّات و التّصاغر بدت من خلال حركات يديه و قد عجز عن التحكّم فيهما و من خلال رفّة عينه التي لازمته فراح يخفيها بكفّه تارة و بلحفته تارة أخرى، حتّى أنّه شعر برغبة في الوقوف و مغادرة المكان. لذلك ما إن سكت حسني الدلاّل عن الكلام الذي لم يسمع أواخره حتّى استقام و تعلّل بتعب زوجته للانصراف. وقف الجميع. ودّعوا حسني الذي اقترح أن يوصلهم بسيّارته لكنّهم حلفوا أن يأخذوا تاكسي و شكره ميلاد و كذلك فعل عبد السلام عامر الذي علّق فيما بعد حين ابتعدوا عن البيت قائلا "خسارته، لا امرأة ولا أولاد."

كان لقاء ميلاد بحسني بعد أشهر من لقائه بالشّيخ، و رغم ذلك استحضره عندها كما لو أنّه لم يمض عليه أكثر من يوم واحد. كلاهما شتم الحاكم كما شاء و كلاهما لم يمنحه حلاً لمشكلة أخيه.

-و ماذا فعل المغبون؟ لم ينفع لا الشّيخ ولا السكّير.

-حسني ليس سكّيرا. لكنّه يشرب. هو يقول إنّ الكأس تردّ له عقله و تريّحه من همّ الدّنيا.

-و أنت صدّقته؟

-هو حرّ يسكر، يصلّي، هذه أمور شخصية.

-بالله يكفي من كلامك المقلوب.

-كلامي مقلوب؟

-مقلوب و فارغ وبلا فائدة. تقول أمور شخصية و هو حرّ؟ لو كان يصلح لتزوّج مثل الرّجال الكلّ. الشراب هو السّبب. النّساء ألوف. قل لي ألم يجد واحدة تستره و تنسيه في المرأة الأولى. باعته. يبيعها كما باعته و يأخذ واحدة أخرى أصغر و أحلى.

-هذا رأيك؟

-إيه. هل قلت العيب؟

-لا كلام صواب.أمّا هذا شيء يخصّه وحده. لعلّه كره النّساء جملة و تفصيلا. من يدري. المهمّ هو مرتاح. كلّ شيء موجود.

-لا يا سيدي. الرّجل بلا امرأة تلمّه كالبيت بلا باب.

- الحمد لله عندي باب.

-عندك باب؟ لولا حليمة لضعت يا محجوب ولد بحرية. والله يأكلك الدّود.

-صحيح... آه.

-تتنهّد...يا ناكر الجميل. الرّجال و الزّمان.

-يا حليمة بربّي يكفي من ها النّغمة. انت بابي و شبّاكي و من قال غير هذا؟

-بابك وشبّاكك؟ أنا أعطيتك عمري. أفنيت أيّامي في خدمتك. صحيح أم لا؟

-صحيح. الله يرحم والديك. أنا لا شيء من غيرك. يا حلّومة الغالية.

-أعطيني بوسة...

-الغالي طلب الرّخيص.

- لا... بوسة العرس.

-بوسة العرس بوسة العرس...

25

عزّة حكت كلّ شيء.

دخل عليّ الغرفة و قبّل وجهي و يديّ وانحنى على الطفلتين كأنّه يشتمّ رائحتيهما. صلّى على النّبيء مرارا ثمّ راح يبكي فأبكاني معه. أمّي صالحة فاجأته وهي تمسك بيدها كانون البخور فارتمت في حضنه و بكت هي الأخرى. بعد شهقات متواترة أجلسته على حافة السّرير و حكت له كيف ولد هو وكيف فرح أبوه مصطفى بميلاده. كانت أيّاما الله لا يعيدها علينا. خفنا عليك من البوصفّير. كنت لحمة حمراء، أقلّ من كيلوغرامين. أيّامها مات أناس كثر من الجرب و الحصبة و السلّ. تموّيّة زوجة بوراوي الحشيش ماتت على النّفاس فجاؤوا بابنها ملفوفا في برنس والده و أرضعته معك عامين كاملين ثمّ أخذوه. تعرف هذا يا ميلاد. أنت أتيت بالخير علينا. أبوك لم يعد يوما بفضلة غلال أو خضر يوما. كان يقول لي إنّك مرزاق.

نظر إليّ ميلاد كأنّه يبصرني أوّل مرّة و دنا منّي ماسكا برأسي بين كفّيه و قال لي إنّ حياته بدأت مع ميلاد البنتين و أعاد تقبيل وجهي و دمعه يجري. أمّه تركت الغرفة وخرجت تزغرد مع دليلة. هو لم يفتح سيرة لأحد. حتّى يوم جاء أخي من الزّرارعة عرف كيف يسكته نهائيّا. البيت لم يكن لا لجليلة أختك و لا لزوجها الله يرحمهما. اكترياه من رجل يدعى الحاج قاسم يسكن في تربة الباي، عنده دكّان يبيع فيه الموالح والتّوابل، و بإمكانك أن تسأله إن لم تصدّق. سآخذك إليه. هو يقول إنّ الجماعة لم تدفع له كراء عامين. راعى العشرة و مصاب المرأة في أولادها و زوجها. أخي ابراهيم لم يرتح لكلام ميلاد. ذهبا معا إلى تربة الباي و قابلا الحاج قاسم الذي أعاد كلام ميلاد بالحرف. و أضاف البيت ما يزال شاغرا إن رغبت في اكترائه. البيت ظلّ لنا. ميلاد قال لي لا نحتاجه و لكنّي أجبته يومها أعطيه للرّومي و لا يدخله ذاك العجل. الحاج قاسم يعرف الحكاية من ميلاد الذي شرح له كلّ شيء فطمأنه و فعل كما اتّفقا.

-كذب عليه؟

-إيه كذب أمّا و الله كذبة أحلى من العسل. ابراهيم أخو عزّة طمّاع قلت لك ذلك. كان يحلم بأن يمتلك بيتا في تونس، لذلك فرح حين خطبها منه ميلاد و ظلّ ينتظر أن يصبح البيت ملكه.

قالت عزّة ميلاد هو الذي أعطى للبنتين اسميهما. هذه علياء تشبه أمّي الصالحة. فولة و قسمت على اثنين. هكذا أم لا يا أمّي؟ صالحة حرّكت رأسها موافقة. و هذه ثريّا. يومها قال ميلاد إنّه لن يدفع العربة مستقبلا و أنّه فكّر في عمل آخر. أنا تعبتُ. لم يعلّق أحدٌ. الجميع تقبّلوا الأمر كما لو أنّهم كانوا ينتظرونه.

-وماذا يعمل؟

-قالوا لي فتح دكّانا في نهج العصفوريّة بجانب دكّان منصور الحشيش.

-وماذا يبيع؟

-لا أعرف. قالوا فتح دكّانا فقلتُ فتح دكّانا.

-وعربته، ألم تقل لي بأنّه كان يحبّها أكثر من عزّة؟

-قلتُ.

-هانت عليه العِشْرَة؟

-والله لا أعرف. سبحان الله. الرّجل قال إنّه لم يعد قادرا على العمل عليها. الدّنيا تغيّرت. رأى ابنتيه فأخذ قراره. العربة أعطاها إلى ولد النّاصر الزكّار. يبيع الهريسة الحلوة.

-شهّيتني في الهريسة.عندي زمان عليها.

-احسبها عندك. أشتري لك غدا مُورْسُو.

-تعرف أين تجده؟

- من؟

- ولد الزكّار.

-يا امرأة سأضرب رأسي و أهشّمه. أنا لا أعرف لا ولد الزكّار و لا ولد الطبّال. قلت لك حكاية.

-ألم تكتمل حكايتك؟

-الحكاية لا تكتمل. تنتهي ولكن لا تكتمل. و سأقول لك شيئا. انتهت الحكاية يوم عاد عزّ الدّين.

-و متى عاد؟

-بعد سبع سنوات من مجيء التوأم. وجدهما في المدرسة.

-من أخرجه من السّجن؟

-هذه حكاية طويلة.

-قل لي، كيف خرج؟

-حين صارت حكايته خارج نظر الرّئيس أخرجوه مع آخرين. الرّئيس هرب من البلاد. تركها و طار إلى السّعودية.

-حجّة أم عمرة؟

-لا هجّة. ما يزال إلى اليوم هناك هو و عائلته. قلتُ تلك حكاية أخرى سأحكيها لك. شيء يهبّل.

-وماذا فعل عزّ الدّين المسكين حين خرج من السّجن ؟

-مسكين؟

-إيه مسكين. قضّى شبابه في الحبس. مسكين أم لا؟

-لو ظلّ في الحبس لكان أحسن.

-ما بك يا رجل؟ هذا كلام لا يدخل العقل.

-اسمعي إذن واحكمي وحدك. قلت لك إنّه خرج. صباح خميس. دقّ الباب. ففتحت له عزّة. قال لها أنا عزّالدّين فارتمت في حضنه. هو لم يحرّك ساكنا بل قولي إنّه دفعها عنه. عزّة أحسّت الدّفعة و كذّبت. لكنّها كانت صادقة حين أخبرت ميلاد فيما بعد. ميلاد نهرها ووجد له آلاف الأعذار. هو لا يعرفك ولم يسمع بك حتّى. من أخبره؟ منذ انقطعت أخباره عنّا لا شيء يصله. سيعرفك و سيحبّك سترين.

لكن عزّ الدّين لم يحبّ عزّة. البنتان لا تقتربان منه. تقول ثريّا إنّ لحية عمّي تخيفني. قل له ينزعها. و تقول علياء بلكنتها لماذا لا يبتسم؟ سلّم على أختيه ببرود وقال لدليلة استري روحك. المسكينة خرجت شاهقة بالبكاء. أنا لستُ عريانة. عندي رجل يقول لي ما ألبس و ما لا ألبس.

هذا لا شيء. في الغد، قال لميلاد إنّه سيرافقه لجامع الفتح بلافايات. سيصلّون وراء إمامٍ من الجماعة. ميلاد أجابه بأنّه لا يصلّي و لم يطل معه الحديث. في اللّيلة الأولى تحادثا عن موت أمّه. في اللّيلة الثّانية تحادثا عن ترك الصّلاة و عواقبه عند الله. ميلاد لم يعد يعرف ما يقول. هو يريد أن يأخذ عزّ الدّين إلى حضنه و يروى له ما وقع خلال تلك السّنوات، و لكنّ عزّ الدّين تغيّر. لم يعد ذاك الذي يناديه سيدي. هو لا ينظر في عيني ميلاد. يحدّثه و ينظر بعيدا.

في اللّيلة الثّالثة، قال عزّ الدّين لميلاد دون أن يلتفت نحوه، غدًا سأرحل. عزّة كادت تتجمّد في مكانها. ميلاد بدا كما لو أنّه لم يفهم لذلك سأله و متى تعودُ؟

كانت إجابة عزّ الدّين جاهزة على شفتيه. رصاصة لا ترحم وجّهها إلى ميلاد قائلا:

-هذه الدّار ليستْ طاهرة. هذه دار كفر.

ميلاد الذي سمع جيّدا كلام أخيه لم يردّ الفعل. نظر حوله. كانت البنتان تلعبان غير بعيد عنه. و لا أدري بأيّ قوّة استلّ من ذاكرة والده مصطفى كلمات قالها له والده ذات يوم و رماها في وجه عزّ الدّين.

-ماذا قال له؟

-قال له، عند ربّي خير.

-و ترك بيتهم؟

-من الفجر.

-الحيّ يرى العجب.

غادر البيت. لم يره أحدٌ. ميلاد الذي لم ينم طوال اللّيل سمع وقع خطاه ولكنّه لم يتحرّك. شيء ما في أعماقه أرادَ دفعه دفعا باتّجاه الباب ومنع عزّ الدّين من الخروج لكنّه لم يفعل. عزّة افتعلت النّوم. هي لم ترد أن تبصر تلك الصّفرة التي رأتها على وجه زوجها في الليل. انكمشت في الفراش وراحت تراقب هذه المرأة التي تسكن جسدها وهي تذرف دمعًا حارقا.

يومها، بدا النّهارُ أزرق. حين خرج ميلاد إلى وسط الدّار أحسّ بأنّ شيئا قد سقط منه فجأةً، شيئا كان يثقل كتفيه و روحه، هو لم يفهم ما حدث بالضّبط. لو دقّق في الأمر قليلا لاكتشف أنّه فَقَدَ ذاكرة والده في ذلك الصّباح نهائيّا. هو لم يفعل. نظر إلى شمسه التي بدت له يومها قريبة جدّا. و ربّما رأى بسمتها.

تونس في تموز جويلية 2013